(1)

كانت سبها قرية هادئة تنام بين أحضان الرمال وتحيط بها أشجار النخيل مكونة مع بيوتها الطينية، الدافئة والمتلاصقة تماماً كقلوب ساكنيها، منظراً خلاباً قلّ ما تقع العين عليه في القرى المجاورة.

كان أهالي هذه القرية ينامون عقب صلاة العشاء مباشرة ولا يبقى خارج المنازل إلا مدمنو الخمر والباحثون عن اللذة خارج سور القرية وهم قلة معروفون لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة وهؤلاء السكارى يتعفف أدنى أهل القرية مترلة وأخفتهم صيتاً من مصاهرتهم فالفضيلة هي رأس مال القرية، وفي هذا المناخ تكونت مفاهيم جديدة في السلوك الفردي والجمعي، فالشاب الأكثر حفظاً للقرآن أو الأكثر تردداً على المساجد وخاصة إذا أتبع ذلك بلحية يطلقون عليه لقب شيخ ليضفوا عليه هالة من القداسة ولو كان لا يفقه شيئاً في أمور الدين والدنيا.

كان من عادة سكان هذه القرية، وما أكثر عاداتهم، أنهم يستيقظون على صياح الديك الأول والذي يسبق آذان الفجر عادة بوقت قصير وإن استسلموا لِسِنة خفيفة لينتبهوا منها على

صوت المؤذن وهم بين يقظة ونوم مرددين خلفه (الصلاة خيرٌ من النوم) معقبين إياها بجملة حفظوها عن ظهر قلب ولعلهم أنفقـــوا وقتاً طويلاً في حفظها (أصبحنا وأصبح الملك لله) مستقبلين يومهم ببقيةٍ من طعام عشائهم مشفوعاً بكوب صغير من الشاي الأخضر تعارفوا على تسميته فيما بينهم بالطاسة الخضراء.

شرب الشيخ حامد طاسته الخضراء المرغوية شـــاكراً الله تعالى بقوله: (اللهم أدِم علينا هذه النعمة وأحفظها من الزوال).

كان الشيخ حامد رجلاً فارع الطول أقرب إلى النحافة به لثغة في لسانه كلما نطق بحرف السين ولذا فهو يحرص على تسبيح وِرده سراً وهو وِرْدٌ أخذه عن جده شيخ الطريقة المشـــهود لـــه بالكرامات كما يقول الذين عاصروه.

ارتدى الشيخ حامد أبهى وأزهى ما عنـــده مـــن ثيـــاب واستأذن أمه ليأخذ مسبحة جده التي ورثها عن أبيه الشيخ عثمان وهي مسبحة طويلة معروفة عند أهل الطريقة والقرية، فلقد رآها كثيرون من كمل الرجال مناماً وأخذوا الطريقة عنـــها مباشـــرة، وهذه المسبحة لا يخرجها شيخ الطريقة إلا ثلاث مرات في العـــام، ليلة عيد الفطر، وليلة عيد الأضحى، وليلة عيد المولد النبوي، فإن

رآها المريدون بادروا بتقبيلها والتمسح بها بكل أدب طلباً لبركة صاحب المسبحة وكانوا يقولون عند استلام المسبحة وعند تسليمها (يا رجال التسليم بركتك معانا ودعوتك تخطانا)، سائلينه أن يحضر ببركته لتتم سعادهم الدنيوية والأخروية أما سبب إخراجه المسبحة هذا اليوم فلأنه يحمل فرحتين، فرحة استلامه المشيخة، وفرحة عيد الفطر المبارك، لذا كان البخور يُشمّ من مسافة بعيدة من منزله صبيحة عيد الفطر.

لم يكن كل المريدين موافقون على استلامه المشيخة، فالشاوش الذي يعد "دينمو" الزاوية كان يفضل أن يستلمها نائب الشيخ الحاج نور الدين وإن لم يكن من سلالة الشيخ الأكبر.. لأن الشيخ حامد لم يصل الأربعين بعد وجرت الطقوس في مثل هذه الحالة أن يستلم نائب الشيخ المشيخة حتى يبلغ ابن الشيخ الأربعين فيسلمها له في حفل تحضره كل الزوايا غير أن عائلة الشيخ حامد كانت تخشى من انتقال المشيخة إلى ذرية الحاج نور الدين فينتقل بذلك شرف كبير ومال وفير لغير عائلتهم وتحسباً لكل ما قد يحدث عند استلام المشيخة حضر كل أفراد عائلة الشيخ حامد حتى من هم دون السادسة عشر وهي السن التي

يسمح فيها للذكر أن يلتحق بالحلقة ويصير مريداً.. وقد ســـاعد نائب الشاوش الذي يرى نفسه أكفأ وأحقّ بلقب الشاوش مـــن الشاوش نفسه إذ له تأثير كبير في المريدين جميعاً كما أن كثيراً من الأهالي لا يأتون للزاوية إلا لسماع صوته الرخيم وهـــو يقصـــد القصائد على وقع الدفوف فهو كثير الحفظ رقيق الصوت.. إلا أن حفل التسليم تمّ على خير ما يريد الشيخ وعائلته.. وإن غاب عنه الشاوش الذي أخذ يفقد بريقه مع الأيام لأن الشيخ حامد صـــار يُوكِل كثيراً من المهام لمساعده بسبب مناصرته له ولأنه من جيلـــه ورفاق صباه.

مضى على استلام الشيخ حامد المسبحة شهور وكل أمور القرية تسير سيراً طبيعياً حتى كان عصر ذلك اليوم الـــذي صـــار يؤرخ به في القرية.. كانت السماء على غير عادتها ملبدة بغيـــوم متناثرة لا يرجى منها غيث وكان الفصل خريفاً ودرجة الحـــرارة مرتفعة وموسم التمور الذي تحتفل به القرية في مرحلة جنيه.

كان الشيخ حامد يهم بالخروج من منزله لتأديـــة صـــلاة العصر في الجامع المقابل لبيته عندما سمع ضجيجاً ولغطاً وصـــياحاً أعقبه بكاء أطفال ونساء وصوت هرولة في الشارع فتح باب بيته

فرأى الناس تجري في كل اتجاه فتدخل إلى بيوتها وتوصد أبوابهـا وهي تنشر الخبر بصوت عال ليأخذ الغافل حذره.. كل الأفـواه تقول بذعر "فلاقه .. فلاقه" والفلاقه كل همهم إحداث أكبر قدر من الذعر في قلوب الأهالي.. فهم يقتلون بدم بارد ودون رحمـة ويغتصبون أموال الناس بلا شفقة.. فالفلاقه بطـونهم لا تشـبع وقلوبهم لا ترحم وجِمالهم لا تتعب لذا كسروا الأبواب ونهبـوا الغلال واستولوا على محصول التمور وقطعوا عـراجين النخيـل وسلبوا حتى الذهب والفضة التي كانت أقراطاً في آذان الأطفـال أو النساء حتى أن بعضهم لغلظته شلم أذن طفلة وهو يغتصب منها قرطها وهم في كل ذلك يُشهرون أسلحتهم ويُطلقـون النـار في اتجاهات مختلفة وكثيراً ما خلّفوا قتلى وجرحى بعد خروجهم مـن القرية مع مجاعة تدوم شهوراً.. ولم ينجُ منهم إلا مخزن الحاج عمر لأنه مظلم حالك الظلمة ليس به نوافذ وبابه صغير مربوط به كلب فظن الفلاقة أن المخزن هو حظيرة للكلب.

كان يصاحب الفلاقة شاب أشمط الجسم قاسي ملامـح الوجه رقيق الساقين نتن الرائحة يأتي في مؤخرة القافلة له من الحقد والحسد على أهل القرية والقرى المجاورة ما يفوق الخيال.

لا يهمه النهب والسرقة التي يقوم بها المجرمون من أبنــاء جلدته بقدر ما يستهويه أن يرى الألم في عيون الأهــالي وخاصــة الأطفال حتى أنه لوحظ في كثير من غــارات أولئــك الأوبــاش يضرب الأطفال بعنف وهو يضحك وعيناه لا تفارقان وجــوههم تتفحص مواطن الألم فيها وهو يبتسم برضا.

وكان من عاداته قبل خروج الفلاقة من القرية أن يُعــرّي آخر من يصادفه في طريقه وهو يقول "سيأتي يوم أُعريكم فيه جميعاً أيها الحقراء" هاهاهاها.. وبعد رحيله يكتشف ذلــك المســكين المُعرّى أن ملابسه التي سُلبت منه بجوار آخر بيت في القرية مما يدل على أنه سادي يتمتع بألم الآخرين..

اشتهر اسمه بين أهالي تلك القرية والقرى المجــاورة لهــا بــ"بوقطاية".. كانت النساء تُخوِّف به أبنائهن بقــولهن "جــاك بوقطاية" كما أن الكبار يدعون على بعضــهم الــبعض بقــولهم "يعطيك بوقطاية على قلبك".

مضى ذلك اليوم بتعاسته وغادر الفلاقة القريــة مخلّفــين وراءهم دماراً في كل شيء فقد نهبوا كل الغلال وقطعوا عراجين

النخيل إلا أنهم لم يخلّفوا قتلى هذه المرة بفضل الله وبركــة شــيخ القرية.

وفي اليوم الثالث لذهاب (الفلاقة) تلبدت السماء بغيــوم كثيفة حجبت نور الشمس فخرج الناس يصلون صلاة الاستسقاء أمام الجامع الكبير، وإن كان كل واحد منهم يعلم علم اليقين أن لا فائدة من المطر هذه الأيام ولكن لا بأس بها كنوع من التعويض لما سُلب ونُهب منهم.

هطلت الأمطار بغزارة غير معهودة وكأنها تُطهّر القرية من أدران ودنس الفلاقة واستبشر الناس بها خيراً قال أحد المتبحــرين بعلوم الدين (إن الدعاء مجاب ســاعة نــزول الغيــث) فَعَلَــتْ التكبيرات والدعوات وهم يتمسحون بضريح الشيخ الأكبر بــأن يهلك الفلاقة ولا يجعل لهم عقب، وأن يحفظ بقية القــرى مــن شرورهم.

طلب الحاج حسن وهو عمّ الشيخ حامد ومدير القرية من أحد موظفي المديرية أن يسير بين شوارع القرية منادیــاً النــاس لحضور الاجتماع صباح الغد بالفناء الملحق بالمديرية لمناقشة شؤون القرية بعد ذهاب الفلاقة.

انطلق الرجل بسرعة الريح إلى مترل الشيخ حامد ليطلعه على ما عزم عمه عليه ويطلب بركته فهو وإن كان يتبع الحـــاج حسن وظيفياً إلا أنه مريد من مريدي الشيخ حامد ولا يجوز لـــه فعل أي شيء إلا بعد أخذ الأذن منه، فرِضاهُ عنه أهم من رضـــا عمّه.

مسح الشيخ حامد على رأس مريده قائلاً أنت تســـتحق الآن أن تأخذ ورْد (السُّموم) فبواسطته تستطيع أن تخرج السُمّ من أي لديغ إن شاء الله، مُرّ عليّ اليوم بعد العشاء، واذهب فبركـــة الشيخ معك أينما اتجهت.

الجملة الأخيرة تعني حصول الإذن له برفع صوته لنـــداء الناس وهذا فعلاً ما فعله بمجرد تجاوزه لعتبة مترل الشيخ.

تجمع الناس وكلٌ يعلم في قرارة نفسه أن لا فائدة من مثل هذا الاجتماع لأنه لن يرجّع أموالهم المغتصبة. ولكنهم مع ذلـــك حضروا للتشاور تماماً كما فعل جلّهم بعد غروب شمـــس اليـــوم السابق في الحضور لمترل الشيخ حامد بدعوى خاصة منه للتشاور وطلب البركة واتخاذ موقف موحد هو في الغالب موقف الشـــيخ

حامد من مجريات الأمور في القرية ومن أطماع عمّه في نخيل الزاوية.

بدأ مدير القرية الاجتماع بآية قرآنية.. أعقبها بطرح وجهة نظره التي لم يرض عنها الشيخ حامد فامتعض المريدون لامتعاض شيخهم وكثر الجدل والتلويح بالقبضات في وجه المدير وأنصاره وتحلق المريدون وأغلب الأهالي مكونين نصف دائرة وراء الشيخ حامد فعرف المدير بدهائه أن الغلبة للشيخ لهذا تقدم وطلب ممن حوله الدخول في المجموعة الثانية لإحداث البلبلة فيها، فعلت أصواتهم مرة أخرى وبين هذه الأصوات ارتفع صوت شاوش الزاوية وهو يقول بصوت جهوري (صلوا على النبي).

وهي عبارة لا يقولها الشاوش إلا إذا أراد من الحاضرين السكوت للاستماع إلى أمر هام، وأي أمر أهم من الاستماع إلى وجهة نظر الشيخ حامد، لذا رد الجميع وكأن العبارة تخرج من فم واحد (اللهم صلِّ وسلم عليه)، كررها بعضهم ثلاثة مرات ليثبت لغيره أنه أكثر تقوى.

هذا والفرق واضح بين هذا الاجتماع والاجتماع السري الذي عقد بمنزل الشيخ حامد لأن الشيخ غير ديمقراطي في حديثه

مع غيره، فهو يصدر كلامه على شكل أوامر وإن كان يحب أن يبدأ اجتماعاته دائماً بالآية الكريمة (وأمرهم شورى بينهم).

فمن يناقش أو يحاور الشيخ..! إلا إذا كان لدعم وجهة نظره، فطاعة الشيخ من طاعة الله.

قال الشيخ بعد أن التفت يمنة وشمالاً.. وحمحم ليجلب إليه الانتباه: لابد من تشكيل لجنة لدراسة المشاكل التي خلفها الفلاقة.

فرد نائب الشيخ وهو من أنصار المدير: هذا مقترح جيد ولكنه سابق لأوانه لأن هناك مشاكل عالقة تريد حلاً حتى قبل مجيء الفلاقة لذا علينا حلها أولاً.

فانطلق صوت جهوري من بين المريدين.

ـ هذا تسفيه لآراء الشيخ.

وانتفض الشيخ حامد كأنما مسه جان وخرج من باب الفناء يتبعه جل الحاضرين وسط نظرات المدير وأتباعه وهم يقولون (لا حول ولا قوة إلا بالله).

انفضّ الاجتماع دون التوصل إلى موقف محدد وهي نتيجة حتمية حسمت قبل بدئه بمترل الشيخ حامد الذي حضر الاجتماع

وفي يده الأغلبية. وقد سبق أن التقى الشيخ بالمدير الذي يرى أن النخل الذي بالزاوية وهو ليس بالقليـــل يكفـــي وزيـــادة لإدارة شؤونها أما الذي ألحقه الناس كوقف وهو الأكثر فيجب أن يوضع تحت تصرف المديرية وكلاهما يعلم لا الزاوية ولا المديرية تستفيد قرشاً واحداً من ذلك فكل منهما يسعى لما يذر عليه المال ولو كان حراماً.. لذا اقترح الشيخ أن تتكون لذلك لجنة لمناقشته من خمسة أشخاص وذكر ثلاثة من أشد مريديه خصومة مع عمه وأن يكون بها عمه وطرف محايد ذكره الشيخ ويكون هذا المجلس هو من يدير أمور القرية كاملة بما فيها نخيل الزاوية وبعض نخلات غرست منذ سنتين بفناء المديرية.

إلا أن عمه أدرك ما يخطط له الشيخ فلو وافق على تكوين هذا المجلس بهذه الصورة لصار الشيخ هو المدير الفعلي للقرية لأن مريديه لهم الأغلبية وكلهم يهابه ويخشاه.. لـــذا رفـــض المـــدير الاقتراح ودعا لاجتماع آخر عرض فيه وجهة نظره قائلاً:

ليتكون مجلس القرية من ثلاث أشخاص.. أنا.. وأنـــت.. ونائبي الذي سيكون سكرتيراً للجنة.. رفض الشيخ بدوره هـــذا المقترح قائلاً:

ـ لقد رفعت يدي عن أمور دنياكم فما عنـــد الله خـــير وأبقى..

أقسم المدير أمام بعض خلصائه أن الشيخ يكـــذب وأنـــه أشد حبا للدنيا من غيره.

ظلت أمور القرية بين أخذ ورد حتى كان يوم الفلاقة.

وإحقاقاً للحق قال بعض من يهمهم أمـــر القريـــة مـــن المحايدين أن المدير قد عرض على ابن أخيه مقترحاً يجنب القريـــة الانقسامات في جلسة عائلية ودية وذلك بأن يكون هناك صندوق تجمع فيه المبالغ المتحصل عليها من بيع التمور وتوزع على فقراء القرية علماً بأن غالبية الفقراء هم من مريدي الشيخ وأتباعه إلا أن الشيخ غضب ونهر عمه لأول مرة في حياته قائلاً: إنك تريـــد أن تبدد ثروة العائلة التي اجتهد جدنا في جمعها بأي وسيلة فضلاً عن ضياع هيبتنا بين الناس..

ويومها خرج عمه غاضباً ومنذ ذلك اليـــوم لم يلتقيـــا في جلسة عائلية وظل كل منهما يفكر بدهائـــه للاســـتحواذ علـــى ممتلكات الآخر التي هي في الحقيقة ليست له. حتى كان ذلك اليوم المشؤوم الذي نهبت فيه الفلاقة القرية.

علت ثلاثة زغاريد من بيت الحاج عمر وهو أحد ثلاثـة تجار من أهل القرية أما الباقون فهم من سكان السـاحل الغـربي ومصطلح الزغاريد الثلاثة فجراً يدل على قدوم مولود أو مجـيء غائب، وحيث أن زوجة الحاج عمر تجاوزت الخمسين فالزغاريـد تدل على قدوم غائب هو زوجها الذي قدم ليلاً ولم يحتفل بقدومه إلا فجراً فتجار القرية يأتون ليلاً ويعلنون عن مجيئهم فجراً لغاية في أنفسهم لا يدركها إلا هم.

حمل الحاج عمر معه هذه المرة إضافة إلى تجارته أخباراً من العاصمة مفادها أن أحد زعماء الفلاقة عُيّن والياً على إقليم فزان، وأن هذا الزعيم قرر أن يتخذ من قريتهم عاصمة لولايته يدير منها شؤون الإقليم.؟

فزع الناس من الخبر وبدأ الأهالي التشاور فيما بينـهم في اجتماع غير معلن ببيت المدير انتهى بتوقيعهم على عريضة تطالب الملك بأن يكون الحاكم حضري وتحبذ أن يكون منهم، أي مـن الأهالي، لأن فزان ذاقت الأمرين من الفلاقة.

قال أحد الحاضرين متحمساً: الحاج عمر يرفع العريضـة للعاصمة لأنه يعرف مساربها أكثر من غيره. وافق الجميـع علـى

المقترح بحماس منقطع النظير وجمع مبلغ لتغطية تكاليف الرحلة بفرض مبلغ على كل بيت.

علق الحاج عمر: بهذه الطريقة حصلنا على المبلغ بيسر (فحمل الجماعة ريش) والمصيبة إذا تحقق تعيين والي من الفلاقة سيكون جمع مثل هذه المبالغ على رأس كل بيت فهو يستهدف الجميع بشرّه دون استثناء.

ولكن الحاج عمر بدهاء التاجر حول الكرة إلى ملعب المدير لأنه لا يريد أن يصطدم بالقادم الجديد فيخسره إذا حدث وفرضته الحكومة عليهم، لذا وقف مخاطباً القلة المتبقية من الجمع الذي أضحى يقل شيئاً فشيئاً بعد التوقيع على العريضة ودفع المبلغ المستحق.

قال الحاج عمر: إنني لست مخولاً برفع العريضة فما أنا إلا مواطن بسيط لا تتعدى صلاحياتي زوجتي وأولادي أما المدير فهو المسؤول عني وعنكم، فهو المخول قانونياً بحمل العريضة وسيجد بحكم منصبه من يستمع إليه لذا فهو الذي يجب أن يسافر لا أنا.

قال هذا الكلام دفعة واحدة وتجنب أن ينظر إلى وجه المدير كي لا يضطر أن يغير في عبارته.

إلا أن المدير رد بقوله: ولكنني لا أعرف المدينــة كمــا تعرفها.. ولذا فإنني أقترح أن نسافر معاً.

فكر الحاج عمر في طريقة أخرى تخلصه من هذه الورطــة قائلاً في نفسه.. المدير يأخذ غلة التمر والمرتب والعلاقة الطيبة مع الحاكم علاوة على الاستقبال الباهر ولن يعدم وســيلة في خلــق علاقة طيبة مع الوالي الجديد ولو كان من الفلاقة ليبقيه في منصبه، أما أنا فأكون (كسلاّخ الحمير لا لحم ولا رائحة طيبة)، وقد أخسر كل شيء.

لذا واجه الحاج عمر المدير بقوله:

تعلم أنني أتيت مساء الأمس وابــني لا يعــرف أســعار البضائع الجديدة وأمر تصريفها يأخذ وقتاً.. والأمر يستدعي السفر اليوم قبل الغد.. فاعذرني.. يا حضرة المدير.. قال ما في قلبــه ثم عبر الفناء متجهاً صوب البوابة الرئيسية متخذاً من رفيق صــباه ومخزن أسراره الحاج عيسى عكازاً يترنح عليه.

وفجأة توقف دون أن يلتفت... خاطب المدير بقوله:

يا حضرة المدير عندما تجد في نفسك الرغبة في مناقشــة موضوع السفر فإن دكاني هو الرابع من الجهة اليمنى.. أرجو أن

لا تجد حرجاً في القدوم إليه.. أما الآن فإن عليّ أن أذهـــب لأن هناك بعض الزبائن ينتظرونني.

لا يخفى ما في عبارة الحاج عمر الأخيرة من تلميح فهـــم منه المدير أن مناقشة موضوع السفر ستكون صعبة وربما اقتضت صرف بعض المال لشراء بعض اللوازم من دكان الحاج عمر ليغريه بالسفر معه.

سمع الحاج عمر وهو في طريقه إلى مترله مساء ذلك اليوم خطوات متسارعة وصوت أقرب إلى الهمس منه إلى المناداة يطلب منه التوقف. تظاهر بعدم السماع احتجاجاً علـــى أن صـــاحب الصوت لم يأت له بالمتجر ظناً منه أنه المدير.. إلا أن دهشته كانت كبيرة عندما استدار ووجد نفسه قبالة الشيخ حامد الذي ابتســـم وهو يقول بصوت متهدج..

ــ لقد اضطررتني إلى الركض لألحق بك.

فقال الحاج عمر وهو يدرك سبب الركض.

ــ خير إن شاء الله يا شيخنا.

ــ خير.. لقد كنت ماراً بجانب دكانك فقادتني قـــدماي إليك وأنت خير من يعلم (تمشي الرجل وين يهوى الخاطر).

فرد الحاج عمر بخبث التاجر.. الجملة الأخيرة (وين يهوى الخاطر) في هذه اللحظة حدق الشيخ حامد، الذي لا يحب تكرار كلامه إلا في حلقة الذكر في وجه محدثه وقال:

ــ سمعت أنك تريد السفر إلى طرابلس فقلت آتي لأودعك.

فرد الحاج عمر باقتضاب:

ــ ومنذ متى تودعني يا شيخ حامد.. أفصح عما تريد.

ــ أجاب: لا أريد إلا مصلحتك.

أمسك الحاج عمر يد الشيخ حامد وضغط عليها وهو يقول الذي أعرفه أن التاجر أدرى بمصالح الناس من الناس.

سحب الشيخ يده بهدوء وقال متظاهراً بالتواضع الذي ليس من شيمه.. العفو.. استغفر الله ما قصدت أن أكون لك مرشداً أو ناصحاً ولكنني رأيت مناماً أزعجني بخصوصك..

علم الحاج عمر أن الشيخ حامد يكذب.. ولكنه خاف أن يكون المنام هذه المرة حقيقة.. فلقد جرت عادة الشيخ أن يقول لمن يريد منه خدمة أنه رأى مناماً ويأتي بقصة يختلقها ليثبط عزيمته أو ليزيد همته.

قال الحاج عمر وهو ينظر بقلق وارتباك متفحصاً وجـــه الشيخ.

ـــ ماذا رأيت؟

ـــ أإلى هذه الدرجة يهمك أن تعرف!

ـــ نعم.. لقد تسمرت قـــدماي في الأرض ولا أســـتطيع حراكاً.. قل أهو خير أم شر؟

ـــ لا أستطيع أن أجزم أخيرٌ كله أم شرٌ كله.. كـــل مـــا هنالك أني رأيت فيما يرى النائم أنك سافرت إلى طرابلس وأتيت بخيرات كثيرة ولكن ما إن دخلت البلدة من بوابتها الشرقية حتى تحلق حولك الأهالي ينهبون ما معك من خيرات وأنت تضـــحك مرة وتبكي مرة. فسألتك هل هي زكاة تؤديها مـــن أموالـــك أم صدقة تقدمها؟ فقلت لا هذه ولا تلك..

ـــ سألتك لماذا إذن لا تمنعهم من أخذ أموالك؟

ـــ أجبتني.. هذا جزاء مـــن يســـافر دون استشـــارة أو استخارة.

ـــ فاستيقظت وأنا أردد.. أرجو أن تكون هذه الرؤية خير على الحاج عمر.

ــ إن شاء الله خير يا شيخ حامد. قالها وهو يبتلع ريقـــه الذي جف في حلقه.

هنا تدخل الشيخ حامد بخبرته قائلاً:

ــ استشر واستخر كما جاء في الرؤية وسافر بعدها سالماً أو ابق غانماً.. ولا يكون إلا خيراً.

أشاح الحاج عمر بوجهه عن محدثه في حركة تنم عن عدم الرضى واتجه صوب مترله في حين ظل الشيخ حامد مسمراً يتابعه بنظراته إلى أن توارى فتأكد من أنه بلع الطعم.

عرف الشيخ عمر بحنكة التاجر أن الشيخ حامد لا يريده أن يسافر مع المدير حتى إذا ما تم الأمر وجاء زعيم الفلاقة واليـــاً على قريتهم كان المدير أول من يطرد من وظيفته.. ويبقى المرتـــع خصباً للشيخ حامد لينهب من هنا ويسرق من هناك.. تماماً كمـــا يفعل الفلاقة وإن كانت سرقة الشيخ حامد في عمومها تحمل طابعاً شرعياً نظراً لكرامات جده.

★ ★ ★

(2)

سافر بعض أبناء القرية إلى مدن الشمال وخاصة طرابلس وبنغازي بحثاً عن العمل.. وكانوا عادة يشتغلون بالمخابز والمقاهي والحقول وبعض الوظائف الحكومية لمن يجيد القراءة والكتابة.

وصل مسعود ولد الحاج محمد صالح إلى طرابلس قادمــاً من القرية على ظهر الشاحنة (الترينته كواترو) كــان عمــره لا يتجاوز الثالثة عشرة ولكن الفلاقة عليهم لعنة الله، قضــوا علــى آخر أمل له في حفظ القرآن الذي حفظ نصفه ووعده والده بحفظ النصف الثاني بعد بيع المحصول، أما الآن وقد نهبت حتى مؤونــة الشتاء فليس له إلا أن يلحق بأخيه الذي سبقه إلى طرابلس بثلاث سنوات.

تجمع أغلب الفزازنة بحجرة المهدي علام ليسمعوا أخبــار القرية والأهل من مسعود الذي نقل لهم وصفاً دقيقاً لمــا جــرى للقرية على أيدي الفلاقة، خاصة المجرم (بوقطاية).

قرر الجميع إرجاع مسعود مرة أخرى إلى القرية لأنــه لم يستلم العمل فلا يؤثر غيابه على أحد، وحملوه بكل ما ادخروه في

أيام الغربة لعله يسعف أهلهم مما يعانون من ألم وجوع.. ذهبوا إلى وكالات الشحن المنتشرة بشارع الرشيد بحثاً عــن مكــان بــين البضائع يؤجره مسعود في رحلة عودته إلى فزان.

كانت البضائع مكدسة بدون ترتيب تعيق المارة من السير ولكن مسعود والمهدي علام الذي تطوع بالبحث عن الشــاحنة (الترينتة كواترو) استطاعا أن يجدا طريقهما إلى الشاحنة المطلوبة.. وكم كانت سعادتهما كبيرة عندما التقيا بالحاج مختــار صــاحب دكان الميدان.

سلما عليه وفرح بهما وسألهما عن أحوالهما.

أودعه مهدي علام الأمانات.. فأخذها وفــتح صــندوقاً كبيراً ووضعها فيه وهو يقول:

ــ عرضت الأمانة على كل المخلوقات فرفضــوا حملــها وحملها الحاج مختار.

ولكن لابــد مما ليس منه بــد... ثــم ودعهــم وهــو يقول:

ــ كونوا رجال..

وبدا عاد مسعود ولم يسافر ليبدأ حياة الشقاء من أجـــل رغيف خبز حاف حرمه منه أولئك الأوبـــاش.. تنهـــد بصـــوت مسموع وأردف قائلاً: منكم لله يا فلاقة تالياً بعـــض آي الـــذكر الحكيم ليخفف بها عن نفسه وليجد في أصحابه عزاء عن أهله..

★ ★ ★

(3)

ذهب الحاج عمر إلى مترل المدير ليخبره بما عقــد عليــه العزم.

استقبله هاشاً باشاً، وجاء بالشاي الأخضر المرغوي. وضع الحاج عمر طاسة الشاي الأخضر الساخنة علــى جبتــه وتنهــد بارتياح قائلاً:

ـــ أما طويسة.. ثم رشف منها رشفة طويلة بصوت عالٍ.

رد عليه المدير بالصحة والعافية يا حاج عمر..

ـــ لم تسألني عن رأيي في السفر..

ـــ (الربيع من باب الدار يبان)..

ـــ صدقت.. ولكن تعلم أن الناس بعد الفلاقة أحــوالهم تعيسة ويعيشون في نصب.. وأنا لا أستطيع السفر حتى اطمــأن على بضاعتي الجديدة وكما تعلم لو بقينا أكثر مــن ثلاثــة أيــام ضاعت علينا الفرصة في التأثير على صانعي القرار في طرابلس.

ـــ إذن ما العمل؟

ـــ (شوية من الحنة وشوية من رطابة اليدين)..

قال المدير يا حفيظ.. بدأت المساومة ثم تحول بوجهه كلية إلى الحاج عمر وقال بصراحة.. ماذا تريد أن تقول؟

ــ أنا لا أقول شيئاً ولكنـــك لا ترضـــى لي الخســـارة.. وبوضوح إذا قبلت شرطي سافرنا بعد غـــدٍ صـــباحاً في ســـيارة البريد..

ــ وما شرطك؟

ــ حتى أعوض خسارتي بالذهاب معك وقفلي متجـــري طيلة مدة غيابي أولاً: الرحلة من هنا إلى طرابلس والعكس علـــى حساب المديرية.. قاطعه:

ــ ولكنك تعلم أن المديرية ليس لها حساب.. إنمـــا هـــي نقودي وأموالي.. أتريد أن تسافر على حسابي.. أليســـت هـــذه قريتك كما هي قريتي.. ما هذه الأنانية يا أخي؟

ــ ولكنك مديرها.. ثم أضاف.. انتظر أنا لم أقل شـــرطي بعد.

ــ كل هذا ولم تقل شرطك.. حرام عليك يا حاج عمر.. أتق الله..

ــ الحلال عمره ما يصبح حرام. والذي أوله شرط آخره سلامة.

ــ شرطي هو.. هو.. وسكت.

ــ طلع هذه الجوهرة يا رجل .. سمعنا.

ــ في الحقيقة ليس شرطاً وإنما أردت أن نسافر معاً ونحن أقرباء وتكاليف الرحلة لن تكون على حسابك حينها بـــل علـــى حسابي.. إذا وافقت.. والمهر الذي تطلب أنا موافق عليه.

تظاهر المدير بالغباء متسائلاً بخبث..

ــ ومن ربة الصون والعفاف التي تريد؟

ــ أنت تعرف أن الزواج قسمة ونصيب. وأن زوجـــتي صارت مع الأيام الأخيرة كثيرة المرض.. والشرع حلل في أربعة.. وكل ما أتمناه أن أحظى بزوجة من منبت طيب.. ولـــيس هنـــاك منبت أفضل من منبتكم.. ثم سكت ورفع رأسه ليقرأ وجه محدثـــه وأضاف.

ــ وأختك مسعودة هي بغيتنا.. فهل أتشرف بالموافقـــة حتى تتم سعادتي.. الله يسعد قلبك؟

ــ يسعد قلبي وقلبك ما دام فتحت هذا الموضوع حتى أنا عندي طلب وهو شرط للموافقة على طلبك.

ــ أنا موافق عليه أياً ما كان.

ــ إنها أختك سالمين ونفس ما تعاني منه أعاني أنا منه.

ــ ولكن أختي سالمين تصغر أختك بعشر سنوات وهـــذا يجعل الزواج غير متكافئ.

ــ أتقصد المهر غير متكافئ؟.. يا سيدي مهـــر أختـــك ضعف مهر أختي.

ــ هذه يدي، فمد يدك لنقرأ الفاتحة.

ــ آمين... آمين..

★ ★ ★

(4)

وصلت الشاحنة (الترينتة كواترو) وضجيج محركها يصل إلى أسماع أغلب سكان القرية خاصة أنها وصلت لــيلاً.. ترجــل الحاج مختار منها وهو يحمد الله على سلامته مـــن عنـــاء الســـفر ويشكره على سلامة البضاعة.

تحلق كل من كان موجوداً بسوق الميدان حوله قـــائلين: الحمد لله على سلامتك يا حاج مختار..

فرد وهو يمسح على لحيته:

ــ الله يسلمكم.. الحمد لله على كل حال.. ونعوذ به من حال أهل النار..

لاحظ المتحلقين أن الحاج مختار تغير أسلوبه فصار دينياً مع تطويل لحيته التي انتشر فيها الشيب ليدلك على تقـــواه وحســـن نواياه في البيع والشراء من أجل كسب أكثر عدد مـــن الزبـــائن خاصة أنه قبل سفرته الأخيرة سُلّمت له مشيخة إحدى الطـــرق الصوفية من أحد مشائخها الكبار بطرابلس فصار يتفاخر بها على غيره من المشائخ وإن كانت تلك الطريقة أقل شعبية وعدد مريدين

بالقرية لأنها لا تضرب الدفوف وليس لها وقف من نخيل أو مبـــاني لذا زهد في مشيختها الكثير.

في الصباح بعث الحاج مختار ابنه الطيب إلى الأسر الـــتي بعث أبناؤها أمانات إلى أهلهم طالباً منهم الحضور لاســـتلامها.. فهرعوا إليه مسرعين كل واحد منهم يحاول أن يســـبق زميلـــه.. استقبلهم بفناء الدار وسلمهم أماناتهم فدعوا له ولأبنائهم بـــالخير وغادروا مسرعين.. وقبل أن يخرج آخر واحد منهم رفع الحـــاج مختار صوته قائلاً:

ـــ انتظر يا حاج سليمان انتظر..

ـــ فرد عليه: خيرا إن شاء الله..

ـــ قال الحاج مختار: طبعاً خير.. فقط لم أر بـــالأمس ولا اليوم المدير.. هل هو مريض أو مسافر..؟

ـــ ألم تصادفه في الطريق؟

إنه سافر مع الحاج عمر إلى طرابلس في محاولة يائسة لثني الحكومة عن تعيين أحد زعماء الفلاقة على رأس ولاية فزان..

بصق الحاج مختار على الأرض.. وقال:

ــ سافرا إلى طرابلس (بعد ما خربت البصرة).. لقـــد تم تعيينه.. والله وحده يعلم ما ستجني لنا الأيام القادمة..

طار الحاج سليمان بالخبر إلى بيت الشيخ حامد ليعلمه بما سمع فيكون هو أول من أعلم الشيخ.. الـــذي طلـــب منـــه أن يستدعي الشاوش فوراً.. وأن لا يشيع الخبر بين الناس.. ولكـــن هل يستطيع أحد في هذه القرية أن يكتم سراً.. حتى الشيخ حامد قام من مكانه ليقفل الباب الخارجي وليعلم زوجته بما سمع.

★ ★ ★

(5)

في منطقة الجفرة، لاحظ المدير والحاج عمر موكبـــاً مـــن السيارات.. فعلما أن هناك شخصية هامة يتقدمها هذا الموكـــب، وبحذر شديد وبدهاء التجار سأل الحاج عمر أحد مواطني (الجفرة) عن صاحب الموكب فرد عليه.. إنه موكب والي فزان.. وأعـــاد السؤال على نفس المواطن..

ــ ومن صاحب الحظوة بهذا المنصب؟

فاستنكر الرجل وقال بحدة:

ــ ألم تعلم بعد أنه رأس أحد قبائل الفلاقة؟ وأردف قائلاً: (جاك الخراب يا مالطا).

فقال له الحاج عمر:

ــ بل قل (جاك الخراب يا فزان).

عاد الحاج عمر لرفيق رحلته مصفر الوجه وهـــو يتـــرنم بأغنية شعبية قديمة (طار الحمام وصفقي يا وزة).

ــ ماذا تقصد يا حاج عمر.. هـــل هـــذا موكـــب..! وصمت.

ــ نعم هذا موكب الوالي الذي نريد أن نــثني حكومــة طرابلس عن تعيينه..

ــ يا ساتر لا تفضح.. دعنا نقترب من الموكــب لنتــبين وجهه.. ثم نسلم عليه ونقول له إننا خرجنا لملاقاته عندما سمعنــا بتعيينه وأردف..

ــ معليش يا حاج عمر أريد أن أحتفظ بمنصب المــدير.. أعذرني.

اقتربا من الموكب وأفصحا عــن شخصــيتهما وكانــت المفاجأة.

لم تستطع ساقا المدير حمله وهو ينظر إلى رجلــين عــرف أحدهما حق المعرفة وتسمرت عيناه على وجهــه ولم يســتطع أن ينبس بكلمة واحدة.. وبعد فترة قصيرة عاد إلى وعيه وازدرد ريقه وهو يقول:

ــ مبارك عليك الولاية يا سيدي بوقطاية.. أقصــد يــا سيدي الوالي.. ثم التفت إلى الحاج عمر وهو يقول مذعوراً إنــه بوقطاية بلحمه ودمه.. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

نطق الرجل الجالس إلى جانب بوقطاية قائلاً:

ــ أنا الوالي وليس هو..

فقالا بصوت واحد:

ــ الحمد لله.

تنبه الوالي لما اعتراهما من ذهول فخاطبهما وهو يلوح في وجهيهما بسبابته أ إلى هذه الدرجة يزعجكما بوقطاية؟ سلما عليه إنه ساعدي الأيمن في فزان.. ومن يعصـــاني أو يتـــأخر في دفـــع الضرائب أسلطه عليه.

ــ فقالا: يا لطيف.. اللهم اكفنا شر هذا اليوم وما بعده واكفنا شر خلقك أجمعين.

لم يفت بوقطاية أن يحرك بإصبعه الأوسط كف الحاج عمر وكف المدير أثناء السلام عليهما.. ومثل هذه الفعل في عرف أهل القرية لا يفعله إلا السقاط من الناس.. لذا غمغما بألفـــاظ غـــير معروفة.. ابتسم بعدها بوقطاية دليلاً على الانتصـــار.. ثم طلـــب منهما وهو يتظاهر بالاحترام الذي ليس من شـــيمته أن يلتحقـــا بالموكب.

★ ★ ★

(6)

في هذا الوقت بالذات كانت الحضرة والبنادير وضـــرب المشفة والسيف ولعق المنجل المتوهج ناراً مع الاستغاثات برجـــال الله الصالحين والأسياد بأن يوفقوا الحاج عمر والمدير فيما ذهبا من أجله.

كانت رائحة البخور التي أطلقت من أجل الأسياد تشـــم من مسافات بعيدة طالبين منهم التدخل لوقف هذه المهزلة..

ولكن منذ مـــتى ســـاعد المـــوتى الأحيـــاء في تشـــكيل حكوماتهم!!

لذا دخل الوالي وأمامه بوقطاية القرية والتي أسماها فيمـــا بعد مدينة.

استمرت الولائم ثلاثة أيام إحتفاءً بقدوم الوالي الذي أقام سرادقاً طويلاً تجمع فيه وجهاء الأهالي ونفر غير قليل من أقربائـــه وأنصاره.. وكانت أغلب الولائم من أرزاق وأقوات الأهـــالي لأن الوجبات التي تقدم للضيوف كلها تطبخ بمنازلهم.

واللافت للنظر والداعي للسخرية أن الوالي طلـــب مـــن بوقطاية السفر إلى طرابلس طلباً للعون والمســـاعدة لأن الأهـــالي والضيوف استهلكوا كل ما أحضره من طرابلس من تموين وهو لا يريد أن يضعف هيبة الدولة في عيون مواطنيها.

خرجت الشائعات من بيت الوالي بذهاب بوقطاية وثلاثة آخرين إلى طرابلس فانطلقت النكات بين الأهـــالي ولأول مـــرة يعرف الأهالي النكتة السياسية.

ولأول مرة أيضاً يعرفون أن النكتة السياسية يحاسب عليه القانون وقد يدخل صاحبها إلى السجن.

لذا كان الأهالي يلتزمون الصمت إذا مر بهم أحد أعـــوان الوالي أو أحد أقربائه..

ولأن الفلاقة يكرهون النكتة لأنها تقلل من قيمة المستهزأ به لذا سن الوالي قانوناً يحرم النكتة السياسية.

ولأن (كل ممنوع مرغوب) كثرت النكات واســـتفحلت وعمت القرى المجاورة لسبها مما دعا بالوالي للإكثار مـــن رجـــال المباحث الذين سموا من قبل الأهالي برجال مباحث النكتـــة ولأن

رجل المباحث من الفلاقة كان يلبس جرداً سُموا من قبل المواطنين بــ (بوجريد).

★ ★ ★

(7)

كانت بالقرب من بيت الوالي تقيم مومس لا يعرف لهـــا نسب ولا من أين جاءت، أجّر بوقطاية عندها حجرة بـــأمر مـــن الوالي حتى لا يجرؤ أحد من سقاط الليل بالتسلل إلى بيتها، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى حتى يطفئ بوقطاية شهوته فلا يتطلـــع إلى نساء أسياده وأرباب نعمته.

كانت تدعى "لافية" أو هكذا تحب أن تســـمى، وبمـــرور الوقت نضب ما عندها من تموين ونقود، لقد كانت تتعيش علـــى البغاء والآن توقف مصدر رزقها فلا أحد يجرؤ على دخول بيتـــها أو حتى المرور من جانبه خاصة إذا كان بوقطاية بالـــداخل لـــذا صارحت بوقطاية بأنها صارت معدمة وهو السبب في ذلك وطالبته أن يؤمن لها قوت يومها الذي كانت تكسبه من كد فرجها.

لم يبخل بوقطاية عليها بماله الحرام الذي كان يكسبه ممـــا يسلبه من الأهالي أو بما يسرقه من بيت الوالي، وفي المقابل كانـــت هي لا تبخل عليه بدفء جسدها البض علاوة على مشاركته لهـــا الفراش أثناء الليل... كانت ذات وجه صبوح وعينان تحســـدها

عليهما الحرائر وفي ليلة عاد بوقطاية مسطولا وطلبها إلى الفـــراش فتابت وطلبت منه أن يتزوجها إذا أراد أن يقضي منها وطره، فما كان منه إلا أن ذهب إلى منزل أقرب مأذون واحضر شاهدين وتم الزواج.

★ ★ ★

(8)

طابت الحياة لبوقطاية مع المومس المتقاعدة بهذا اللقب كان سكان البناية الحمراء ينادونها، كان يغدق عليها ويحبها.

حدث نفسه مرة.. أأنا أحب ؟.. هذا إحساس غريب أول مرة ينتابني، صار سعيداً.. إذ صار له بيتاً يأوي إليه مثل غيره من الناس، بعد أن كان كلباً ضالاً يعد المؤامرات والدسائس وينفذ كلما يكلفه به سيده وولي نعمته الوالي، من قتل وضرب وسجن، كلها بفضل الوالي تسجل ضد مجهول.

كانت هذه الأعمال بمثابة هوايته ورغبته قبل أن تكون أوامر صادرة له، فهو يحب أن يرى الرعب والخوف في عيون ضحاياه، خاصة إذا كان من الأهالي المقهورين فهو يبالغ في تعذيبهم.

في صباح أحد أيام الشتاء، كان البرد قارصا، والريح عاصفة وحفيف أشجار النخيل يسمع من مسافة بعيدة دخل بوقطاية على الوالي مقبلا يديه ورأسه كعادته ولم يكن بدار الضيافة أحد غيرهما ربت الوالي على كتف بوقطاية وطلب منه أن يحضر

زوجته لمساعدة سيدتها في بعض شؤون المترل لان المرأة المكلفة بتدبير شؤون المترل سافرت مع زوجها الذي انتقل إلى الشمال.

تجهم وجه بوقطاية وأحس بدوار ولكنه تمالك نفسه قائلاً كلنا في خدمتكم يا سيدي وعظ على شفته السفلى من الغيظ ثم نافق الوالي وأظهر سعادته لأنه يعرف أخلاق هؤلاء القوم تجاه النساء خاصة مع من كان لها سوابق مثل زوجته.

ذهب إلى بيته حزينا مغموما وأخبر زوجته التي رحبت بالفكرة، وحين سألها:

ــ لم هذا الترحيب؟

حاولت أن تخفي السبب الأول والرئيسي وهو خروجها من المترل لأنها صارت حبيسة منذ تزوجها بوقطاية وقالت إنه أمر من سيدنا وولي نعمتنا فهل لنا إلى رفضه من سبيل.

علم بوقطاية علم اليقين أن زوجته لن تمانع في أن يطأها الوالي بل هي التي ستغريه بذلك، أحس بوخزة في قلبه وهو يتذكر أن زوجته أجمل من زوجة الوالي بكثير والوالي أجمل منه بكثير، ولكن بفعل الخيبة حدث نفسه بأن قد لا يحدث ذلك أبداً فلم يتذمر.

وفي بيت الوالي التقت "لافيــه" برجل محتقر من الجميــع غير معروف النسب ولا المنطقة التي جاء منها وكان، كما يقــال عنه، مثل الفقاع خرج من باطن الأرض.

أشفقت عليه في أول الأمر لأنه مثلها لا جذور له في هذه الأرض ولكن لشراهته للجنس خاطب نفسه بصــوت مســموع مهموس ما أجمل قوام هذه المرأة؟

قالها بلغة غير العربية، ففغرت "لافيه" فاها وسألته بــنفس اللغة التي تحدث بها:

هل أنت .... !

فرد عليها السؤال بمثله... وهل أنت ....!

ودون أن يدري ودون أن تدري ارتمت في أحضانه فضمها إليه بحنان وقبلها وطلب منها إخفاء حقيقة أصلهما عن الجميــع خاصة زوجها فقالت: وهذه هي رغبتي.

ضاجعها ببيت الوالي وفي الحجرة الملحقة به من الناحيــة الغربية، فرحت به وفرح بها.

وفي يوم أخبرته أنها قد حملت منه فقال ألا يجوز أن تكوني حاملاً من زوجك أو حتى من الوالي، فبرقت عيناها وهي تكـــرر جملته الأخيرة باستغراب..

ــ من الوالي!

ــ ماذا تقصد؟

فاخبرها بأنه يعلم كلما يدور بداخل هـــذا البيـــت مـــن أسرار.. فضحكت وأجابته ولكنني لم أستمتع بالجنس مـــع أحـــد منهما قدر استمتاعي به معك، فأنت ابن عمي ولو كانت درجـــة قرابتنا بعيدة..

بعد شهور سُمعت من بيت بوقطاية زغرودة مع الفجـــر فعلمت الجارات بالتجربة بأنه قد زاد عددهم واحداً.

اقترب بوقطاية من زوجته بعد أن خلت حجرة الوالدة من الضيوف وحمل الوليد بين يديه..

ــ فقالت له مداعبة: إنه يشبهك تماماً وهي تعلم في قرارة نفسها أنها كاذبة..

نظر إليه طويلا ثم ناوله لأمه دون أن يقبله أو ينبس بكلمة واحدة يدعو فيها لها بالسلامة..

لقد طعن في شرفه وسمع صوتا يتـــردد في أذنـــه إنـــه لا يشبهك..

حاول أن يقنع نفسه بأن الوليد لم تحدد ملامحه بعد، وحتى يصير صبيا وتتحدد ملامحه ولكل حادث حديث.

وحينها لن يسامح بوقطاية من خانه مع زوجته وإن سامحها خوفا من بطش الوالي الذي لا يرحم حتى أقرب الناس إليه.

★ ★ ★

(9)

دخل بوقطاية الزاوية وخرم حلقة الذكر واتجـــه صـــوب الشيخ ولكنه لم ينهر أو حتى يعاتب من قبل المريدين لأهم يهابونه ويخشون لسانه وسطوة يده.

لم يسر في أذن الشيخ بالخبر بل خاطبه بصوت جهوري به بحة واضحة ودون حتى أن يلقي عليه التحية قائلاً:

ـــ الوالي يريدك الآن.. هيا قم معي.

ومد يده ليوهم الشيخ بأنه يريد مساعدته على النـــهوض ولكنه سحبها في آخر لحظة فجثا الشيخ على ركبتيـــه، وابتســـم بوقطاية منتشيا لأنه يحب أن يذل ويهين من له قدر ومرتبـــة بـــين الناس.

لم يعلق الشيخ بشيء، بل نهض ليلحق بوقطايـــة الـــذي توارى بسرعة الجن من الزاوية.

طلب الشيخ من الشاوش أن يسبقه إلى مترله ليجهز لـــه الحمار ليركبه إلى بيت الوالي.

رفع الشيخ رأسه فرأى السماء صافية إلا من بعض سحب متناثرة هنا وهناك فتمتم فيما بينه وبين نفسه وهو يعبر باب البلدة من جهة البوابة الشرقية.

ــ (اللهم اكفني شر هذه الليلة وشر الوالي وشر خلقــك أجمعين).. ثم رفع عقيرته بالقصائد والمدائح ليطرد بها الخوف مــن قلبه.

وفجأة توقف حماره وضرب برجله الأمامية علــى الأرض وتراجع إلى الخلف خطوة، ثم سمع الشيخ حركة غير عادية وصوتا مرعبا..

ذعر وقارب أن يسقط من فوق الحمار لشــدة الخــوف وأخيرا نطق متعوذا..

ــ (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. إنسي وإلا جني!)..

ــ فقال صاحب الصوت ليزيد في رعب الشيخ: جني..

ــ ففرح الشيخ وقال منشرحاً.. (الحمــد لله جــني ولا بدوي).

وفي هذه الأثناء برز بوقطاية بوضوح أمام الشــيخ وهــو يقول: أ إلى هذه الدرجة تخافون البدو أيها الأهالي الحقراء؟

ثم طلب من الشيخ أن يترل عن ظهر الحمار ليركبه قائلاً لا يليق بـــ "جباد" أن يركب والبدوي يسير على قدميه.

نزل الشيخ مكرها.. وركب بوقطاية الحمار وأخذ يضربه ويرفسه بشدة والحمار تزداد سرعته نتيجة لذلك الضرب والرفس والشيخ يهرول حتى يستطيع أن يجاري سرعة الحمار.

ولما اشتدت قسوة بوقطاية على الحمار تدخل الشيخ قائلاً بلطف لا داعي لكل هذا العنف.. الحمار يســـير دون ضـــرب.. فاستشاط بوقطاية غضبا وقرعه مؤنبا بقوله:

ــ إن لم تصمت يا حشرة ركبتك أنت..

فصمت الشيخ لأنه يعلم أن بوقطاية يعني ما يقول.

ولما لم تبق إلا مسافة قصيرة من الوصول إلى بيت الـــوالي نزل بوقطاية عن ظهر الحمار وسلمه لصاحبه الذي بلغ به الإعياء أشده، فركب الشيخ الحمار وملابسه مبلّلة من العرق..

فعلا لقد كانت المسافة قصيرة ولكنها أراحته شيئاً مـــا.. وصل أخيرا إلى بيت الوالي، وطلب منه بوقطاية الوقـــوف أمـــام الباب حتى يستأذن له في الدخول على الوالي.

وعلى غير العادة أدخله الوالي بسرعة وهش له وابتســـم ابتسامة عريضة بانت من خلالها أسنانه القذرة السوداء، وبينـــها بعض من بقايا اللحم التي ما زالت عالقة بها من وجبة العشـــاء.. وبفراسة الشيخ المعهودة لاحظ أن الوالي على غير عادته.. كـــان قلقاً مضطربا لا يكاد يستقر في موضع حتى يقوم منـــه لغـــيره.. وبعبارة أدق كان غير مسيطرٍ على سلوكه.

لم يسبق أن استقبله بمثل هذه الحفاوة فسرح به تفكـــيره بعيداً...

وانتبه على صوت الوالي يقول له:

ـــ تفضل تقدم واجلس هنا عن يمني يا شـــيخ فـــأوجس الشيخ منه خيفة فحدثته نفسه بأنه كان بالأمس مكـــان مزجـــر الكلب من اللئيم فكيف صار اليوم يجلس عن اليمين.. وتمـــتم.. اللهم اجعله خيرا.

طبعاً لم ينس الشيخ وهو في طريقه إلى بيت الوالي أن يتلو ورد الصباح والمساء والسبع المنجيات التي حفظها عن ظهر قلب في صباه راجياً أن تسعفه وتنصره على شيطان الوالي عندما يصير

بين يديه ويبدوا أنها فعلت فعلها الأمر الذي جعل الوالي يســـتقبله بمثل هذه الحفاوة.

عدل الشيخ من هيئته وأعاد لف عمامتـــه علـــى رأســـه وحمحم وهو يجلس على الكرسي الوثير قائلاً:

ــ "بسم الله"...

ربت الوالي على ركبته وهو يقول:

ــ تعلم معزّتك عندي أنت ذراعي الأيمن في حيكم وأنـــا أعول عليك كثيراً... ولهذا استدعيتك..

ــ قال الشيخ: إن شاء الله خير..

ــ فنهره بوقطاية: أصمت واستمع طبعاً خير فكـــل مـــا يصدر عن سيدك الوالي خير حتى لو كان سيضربك بالسوط على ظهرك يا جباد.

انكمش الشيخ على كرسيه والتفت الوالي لبوقطاية قائلاً:

ــ اصمت ولا تتحدث في حضرتي إلا بإذني يا حقـــير.. والآن أخرج انتهت مهمتك.

ــ فقال الشيخ الحمد لله: (كل سيد عنده سيد).

ثم مرت فترة قصيرة حاول فيها الوالي أن يعيد البســـمة للجلسة وأن يجعلها ودية وهو يقول:

ـــ تعلم يا شيخنا أن الحكومة في طرابلس قررت إجـــراء انتخابات في كل محافظات المملكة.. فرد الشيخ بعفوية:

ـــ ومن أين لي أن أعلم يا سيدي؟.. لا علـــم لي إلا إذا أعلمتني.

تظاهر الوالي بعدم سماعه وواصل حديثه:

ـــ أنت ذراعي الأيمن قل لرأس كل عائلة أن يجمع أفراد عائلته الذين يحق لهم الانتخاب وأن يضعوا بطاقاتهم في الصندوق المخصص للوالي ولا ينسوا أن يمروا عليّ مساء يـــوم الانتخـــاب ليستلموا خمسة دنانير لكل فرد... وأن يفتحوا عيونهم ويرعبـــوا كل من يحاول أن يغير أفكارهم..

فقال الشيخ:

ـــ وهل هناك من يجرؤ على فعل ذلك؟

فأجاب الوالي باقتضاب:

ـــ إلى حد الآن لا.. ولكن في الغد من يعلم..؟ ثم استطرد وكأنه تذكر شيئاً كان قد نسيه.

ــ علماً بأنني سوف أعاقب كل من يجرؤ عليّ فيصـــوت لغيري بضربه بالسوط السوداني.

★ ★ ★

(10)

اتخذ الشيخ حامد طريقه إلى حيهم وهو يقصد ويمدح وقبل أن يدخل من البوابة الشرقية استقبله المخلصون من مريديه يتقدمهم الشاوش الذي استلم زمام الحمار وقاده وباقي المريدين من خلف حمار الشيخ يرددون لازمة القصيدة التي كان قد بدأها قبل دخوله البوابة إلى أن أوصلوه إلى منزله.. عندها نزل من الحمار وسلمه للشاوش ليأخذه إلى الحظيرة ثم فتح باب بيته وطلب من المريدين أن يدخلوا.

بعد أن تفحص في وجوه المريدين فوجدهم كلهم من أنصاره الثقاة، سرد عليهم القصة كاملة.. وأمرهم بأن ينتشروا في صبيحة الغد بين الأهالي مرغبين إياهم بانتخاب الوالي وتذكيرهم بالخمسة دنانير لكل فرد.. وترهيبهم من لسع السوط السوداني فوق ظهورهم إذا خالفوا ذلك.

★ ★ ★

(11)

بخروج الشيخ حامد تنهد الوالي بارتياح قائلاً:

ــ وهكذا قسمنا البلد نصفين.. هاها .. هاها.

سبقت منافسي الحاج مختار إلى قلوب مواطنيه بالتهديد والترغيب وإن كان التهديد أقرب إليهم من الترغيب والله لن يأخذوا مني مليما واحدا هاها .. هاها..

وتابع الضحك حتى استلقى على قفاه.

تذكر قصة (الناقة تبي جمل)، فزاد ضحكاً حتى دمعت عيناه.. تلك القصة المتداولة بين الأهالي (لا أحد يقدر يقول الناقة).

★ ★ ★

(12)

ومع فجر اليوم التالي علت زغرودة ثم تبعتها عدة زغاريد لأن الحاج مختار عاد من سفره ســالماً غانمــاً ولأن الحكومــة في طرابلس قبلته مرشحاً في الانتخابات ضد الوالي..

أمر الحاج مختار كبير البراحين أن يطلق البريح في الولايــة كلها يردد بين الأحياء بأن الحــاج مختــار ينــوي المشــاركة في الانتخابات والحاضر يعلم الغايب بأن يوم الجمعة القادم ســيكون مهرجاناً شعبيا يحضره جميع الأهالي بعد وجبة الغذاء أمام المســجد الكبير.

نزل الخبر على رأس الشيخ حامد نزول الصاعقة وحــار فيما يفعل وبينما هو في هذا الحال دخل عليه بوقطاية بــدون أن يطرق باب بيته وهو يقول: افتح.. افتح الباب يا شيخ.. (جــاك الخير يا فقري.. زيط في الرز).

فتح الشيخ الباب فرأى سيارة كبيرة نوع (كيون) محمّلة بالمواد الغذائية وإلى جانبها سيارة شحن صغيرة نوع (بيجو) محملة بالخراف.. سأل الشيخ ما هذه البضاعة؟

أجاب بوقطاية:

ــ (كول ورحّم.. اذبح واعزم الذين سينتخبون الوالي)..

ثم سأل بخبث:

ــ متى قرر الحاج مختار أن يعزم الضيوف؟

ــ فقال الشيخ: يوم الجمعة بعد الصلاة..

ــ قال بوقطاية: إذن ليكن موعدنا نحن أيضاً يوم الجمعة بعد الصلاة.. لنرى من معنا ومن ضدنا..

انتشر خبر السيارة والخراف وعزومة الوالي يوم الجمعة بعد الصلاة بجامع السوق انتشار النار في الهشيم، وأسر كل واحد الخبر للثاني بأن الشيخ حامد يناصر الوالي على ابن جلدته طمعاً في ماله أو في منصب قد يناله.

أغتم الحاج مختار كثيراً من موقف الشيخ خاصة أنه كان يعول عليه كثيراً فهو يعلم تأثيره في الناس، لذا وامتثالا لنصيحة أحد الحاضرين قرر الذهاب إلى مترل الشيخ فكما يقال:

(القبر الذي تخاف منه نم عليه).

★ ★ ★

(13)

انتشرت الشائعات أن الوالي سيحضر وجبة الغذاء بجامع سوق الميدان وحيث أن كثيراً من الأهالي لم يروه من قبل عقـــدوا العزم للمجيء لمشاهدته.

أقسم أحد الأهالي لمجموعة جالسة أمام دكان الحاج عمر أنه سبق وأن شاهد الوالي من قبل وأن رأسه كبير ويعلو فمه شنب يقف عليه الطير.. فعلق أحد الحاضرين من المشـــهورين بصـــناعة النكتة: موش بعيد أنت توصف في خيال الظل الذي بمـــزرعتكم.. وتعالت الضحكات بين الحاضرين..

وقال آخر: أقسم أنه رآه من قبل ولكن لـــيس بشـــنب تحاشياً من تعليق الآخرين وإنما بلحية بيضاء مثل الصوف تصل إلى سرته، فعلق صانع النكتة بقوله: ممكن رأيته وهو لابس نطـــع... فتضاحك الحاضرون. وليؤكد على صدق قوله.. أقسم أنه لـــولا لحيته لظن أنه امرأة فشعره المظفور يسرح على ظهره، فقال أحد الجالسين معلقاً.. هو أنت توصف في الوالي وإلا في وليته..

وهنا تصايح الحاضرون.. وهم يتضاحكون بصوت عال..

أما هكي الكذب وإلا بطل..

ثم انفضّ المجلس وذهب كل إلى حال سبيله.

★ ★ ★

(14)

ذهب الحاج مختار ومعه رؤوس عائلته إلى منزل الشـــيخ حامد لإقناعه بالعدول عن مناصرة الوالي... وكم كانت دهشتهم كبيرة عندما لاحظوا بوقطاية يتوسط مجموعة كبيرة مـــن النـــاس جلهم ليس من الأهالي.. كان بوقطاية يدخن (التكونيا) وهو يسعل وصدره يعلو ويهبط كلما أخذ منها نفسا طويلا وعيناه من فـــرط ذلك بارزتان وكأنهما تريدان أن تقفزا من مكانهمـــا ممـــا زاد في بشاعة وجهه.

التفت بوقطاية فرأى الحاج مختار وجماعته فتوقـــف عـــن التدخين وبدأ الجد على ملامح وجهه قائلاً:

ــ ماذا جئت تفعل؟

إلا أن الشيخ حامد تدخل بسرعة لإصلاح ذات الـــبين قائلاً:

ــ إنه ببيتي وهو من أهلي.

لم يمهله بوقطاية ينهي حديثه خوفا مـــن أن يطلـــب منـــه الجلوس فقال:

ــ هذا عدو.. ونحن نخطط لبرنامج الانتخابات ونخشى أن يسرق منا خططنا وبرنامجنا الانتخابي.

ولم يمهله الحاج مختار ليكمل حديثه بل دار علـــى نفســـه نصف دورة وتبعه من جاء معه وعاد من حيث آتي.. وهو يقول:

ــ (السارق يعرف نفسه يا بوقطاية).

اغتم الحاج مختار كثيرا وحار فيما سيفعل لقد انفرط عقد الأهالي وهم من كان يراهن عليهم في برنامجه الانتخابي خاصة أنهم كما يدّعون من أصل واحد.. فكيف يحدث هذا في وقـــت هـــم أحوج الناس فيه ليكونوا يدا واحدة.. ثم اتكأ إلى الخلـــف وقـــال بمرارة:

ــ (لا حول ولا قوة إلا بالله).

بعد منتصف الليل بقليل سمع الحاج مختار طرقاً على الباب فقال بصوت اجتهد أن يكون أعلى ما يستطيع لأنه ظن أن الوالي قد بعث له من يقبض عليه أو يغتاله.. لذا رفـــع صـــوته ليطـــرد الخوف من قلبه فجاءه صوت هامس.

ــ افتح يا حاج مختار أنا الشيخ حامد..

فتح الباب ودخل الشيخ فضمه إلى صدره بحنان وهو يقول:

ــ هل صدّقت إنني أقف إلى جانب الغريب ضدك؟! نحن أسرة واحدة ومن سلالة كريمة النسب فهل نضحي بكل ذلك دفعة واحدة من أجل خاطر عيون الوالي؟!

تهلل وجه الحاج مختار من الفرحة فسجد شكرا لله أن حفظ الأهالي من الانقسام.. ثم وكأنه استدرك.. ماذا سنفعل مع الوالي ومع ما جلبه لك من خيرات؟

ــ لهذا السبب أنا هنا.. أريد منك أن تأتى معي هذه الليلة بسيارتك نصف الشحن حتى نتمكن من نقل جزء من البضاعة إلى مخزنك لتبيعها وتأتيني بثمنها.. وهكذا كل يوم حتى ننتهي مما نود بيعه..

ــ (أنا اكسب المال وأنت تكسب الرجال والخاسر معروف).

ــ أم أن لك رأياً مخالفاً يا حاج مختار؟

ــ نعم الرأي.. ماذا ستفعل يوم الجمعة وغذاء الناس؟!

ــ أنا لن أبيع كل البضاعة فهي كثير قســـمتها قســـمين نصفها أبيعه ونصفها أصنع به طعام الغذاء وتطلب أنت من أقرب الناس لك وممن تثق بولائهم أن يذهبوا إلى جامع السوق لتنـــاول وجبة الغذاء هناك ويتظاهروا بأهم من أنصار الوالي فيتناولوا وجبة الغذاء هناك ولكن أزيد عليك في التكلفة يا حاج مختـــار الـــذي أصرفه عليهم تدفع ثمنه أنت فهؤلاء ضيوفك وليســـوا ضـــيوفاً للوالي.

ــ أجاب الحاج مختار مقطبا جبينه .. اتفقنا.

ولا تنسى إنني سأتحمل وحدي مسؤولية ما يجري لو علم الوالي بالمخطط.. لهذا تعطيني النصف قبل الانتخابات والنصـــف بعد فوزك إن شاء الله.

ــ قال الشيخ حامد حضّر قلبك وانده جدك واقرأ الفاتحة من أجل الفوز في الانتخابات.

ــ آمين.. آمين..

قال الحاج مختار بصوت أقرب إلى الهمس وهو يقفل باب بيته.. كم أنت جشع وحقير يا شيخ حامد.. أتمسكني من يـــدي التي تؤلمني.. مردود لك في الفرح..

★ ★ ★

(15)

اندهش الحاج مختار واستغرب ودمعت عيناه وهو يـرى أغلب أهل محلته وكثيرون غيرهم بعد أن صلوا الجمعة معه تركوه ليذهبوا إلى مسجد الميدان لتناول وجبة الغذاء التي أعدت علـى شرف الوالي شخصيا، مما اضطره إلى أن يطلب من خاصته الذين أمرهم بالذهاب إلى جامع الميدان للتمويه أن يبقوا..

نصب الوالي سرادقا فخما كبيرا خارج المسجد وبالتحديد على سوره الشمالي قبالة الميدان مباشرة.. وبدأت الوفود ترد قبل آذان الجمعة بوقت طويل.. والذي أدهش الأهالي أن القادمين مع الوالي جلهم لم يصلوا الجمعة ولا العصر.

استبعد الوالي أثناء حضوره بوقطاية من الوليمة لمعرفتـه الأكيدة بكرهه للأهالي وكره الأهالي له وإن حضر نفر غير قليـل من قبيلته.. ولاستفزاز الحاج مختار أكثر.. طلب الوالي من بعـض أنصاره أن يذهبوا إليه في الجامع الكبير ويخبروه أن الوالي يـدعوه لتناول وجبة الغذاء معه بسرادقه.. ويلمحوا له بـأن التكـاليف الباهظة سترهق ميزانيته البسيطة.

لم يرد الحاج مختار على الإهانـــة والاســـتفزاز، لأنـــه لا يستطيع لذا استخدم ذكائه ودهائه المعروف بهما أثناء مخاطبة مـــن بعثهم الوالي له.. قائلاً:

ــ بلغوا سعادة الوالي سلامي واخبره أن الاخـــتلاف في الرأي لا يفسد للود قضية.. وأنني سوف آتى لأسلم عليه..فهـــو ضيف على محلتي ولكن بعدما أنتهي من توديع ضيوفي..

ضحك الوالي فضحك الجالسون حوله مجاملة له وقال:

ــ (الفزاني تعلم اللكاعة وعرف يتكلم)..

تنبه إلى فلتة لسانه فقال مداريا أقصد الحاج مختار وأردف: كلنا فزازنة ها ها ها.

فصدرت تعليقة من أحد الأهالي:

ــ "البدوي يخلع جلده ويلبس جلـــد الفزازنـــة مـــدة الانتخابات فقط"..

ولأن كلمة السوء تسقط في أذن صاحبها طـــارت هـــذه الكلمات وسقطت كالجمرات في أذن الوالي.

ولكنه لم يعلق وحاول الجميع معرفة من هـــو صـــاحب التعليقة دون جدوى لأنه أخفى رأسه بين جماعته أثنـــاء الـــتلفظ بالعبارة المشؤومة.

بعد زمن ليس بالقصير ولا بالطويل اســـتأذن الـــوالي في الانصراف.. فشيع بالزغاريد والتصفيق إلى سيارته فعد ذلك تأييدا ومباركة له بنصره على خصمه..

وفي سيارته مال على سكرتيره وقال خرجت العبارة مني دون أن ادري فرد السكرتير الحكيم عليه بقوله:

ـــ (ما أضمر المرء شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه)..

وزاد.. لكنك يا سيدي انصرفت قبل الميعاد المحدد لإنهاء الزيارة.

فقال الوالي:

ـــ ألم تستمع إلى تعليقة ذلك الفزاني.. إنه يطردنـــا مـــن حيهم أنا أعرف أن لا أحد منهم يحبني كما أنني لم أفعل من أجلهم شيئاً يحبونني عليه ولكن لابد لهم من انتخابي بالتزوير أو بالاختيار.

★ ★ ★

(16)

شهدت الفترة التي سبقت الانتخابات جلد كـــثير مـــن الأهالي بدون جريرة لإدخال الرعب في قلوبهم يوم الانتخابات..

وحيث أن منصب الوالي لم يأخذه بالانتخاب ولا بأخـــذ رأي الأهالي في فزان.. بل لصداقته بالملك في المنفى.. ولأنه خـــير من يعلم بأن المعارضة في المنفى هي بيع وطن ، وتآمر ، لذا بدأ في التآمر بتزوير صناديق الانتخابات ، فضلاً عـــن نفيـــه وســـجنه للجماعات والأفراد الذين يستطيعون أن يقلبوا عليه الكرســـي في أي لحظة..

وبهذه الدسائس والرشاوى نجحت خطته..

عرف الملك عن طريق عيونه المندسين بـــين الشـــعب أن التململ من حكم الوالي في فزان قد زاد عن الحد المحتمل لأي بشر أن يطيق.. فالاحتقار والدونية التي تمارس عليهم لا ترضاها حـــتى الكلاب..

لذا حاول جلالته استرضاء الفزازنة بتعيين وزير منـــهم ، وقربه إليه لغاية في نفسه ، وهو يعلم في قرارة نفسه أن الفزازنة لا

يريدون منه وزارة بقدر ما يريدون والياً ، يحتـــرمهم ، ولا ينظـــر إليهم باحتقار، فيسجنهم ، وينفيهم ، ويضربهم بالسوط السوداني.

وقديماً قالوا:

(يا سعد من كان للملك صديقا)..

بهذا علق أهالي منطقتي مرزق وأوباري الذين ابتلوا بما سمي بمحافظ ليس منهم أيضا والغرض من تعيينه كما يشاع.. أمـــني.. لضبط مناطق الجنوب الليبي..

وهذا المحافظ كسابقه لا شهادة علمية ولا مقدرة إداريـــة ولا خبرة وظيفية.. إلا انه ينتمي لقبيلة لها تأثير على حدود الدول المجاورة لليبيا.. وكذلك لأن له علاقة طيبة بجلالته.

★ ★ ★

(17)

صار بوقطاية عصبيا يغضب لأتفه الأسباب.. ويضرب لأوهى الأسباب.. حاولت زوجته أن تدرك سر غضبه ولكنه كان مقطب الجبين دائما حتى علاقته الجنسية ليست بذلك النهم الأول.

كان ينظر إلى ابنه مخلوف كثيراً حيث صار صبيا يافعا..

لقد كبر وما أسرع ما يكبر اللقطاء.. ما بين غمضة عين وانتباهتها.. أصبح شاباً قوياً يشبه أباه لدرجة التطابق..

علم الوالي بفراسة البدوي من يكون أباه وبالطبع عرف ما جرى بين "لافية" والغريب من علاقة جنسية في مترله فقال مخاطبا ذاته كيف يجرؤ الحقير أن يجعل بيتي مكانا للدعارة فيدنسه لذا قرر قتله.. ودفنه بعيدا عن المناطق السكنية.. كلف بوقطاية بذلك ففرح كما لم يفرح من قبل بقتل أحد وهو الذي أزهق على يديه نفوس كثير من المعارضين أ لأنه سيقتل هذه المرة من خانه مع زوجته ومرغ شرفه في التراب؟.

عرفت الداهية بما يبيته زوجها لابن عمها أثناء ممارسـتها الجنس معه وهو نصف غائب عن الوعي نتيجة لما احتسـاه مـن خمر.. فغافلته حتى نام وصار يغط في نومه كثور مذبوح فخرجت متسللة مسرعة إلى الغرفة الملاصقة لبيت الوالي من الجهة الغربية.

طرقت الباب طرقات خفيفة.. ففتح الغريب الباب نصف فتحة ليتبين الطارق ولما تعرف عليها من خلال صوتها لان الظلام كان يعم المكان أدخلها وسألها مذعورا عن السبب من قـدومها على هذه الهيئة وفي هذه الساعة المتأخرة.. جلست إلى جانبه على سرير مارست الجنس عليه مرات معه وهي ترتعـد مـن الـبرد والخوف وأخبرته ما يبيت له من قبل الوالي وبوقطاية.

ارتعب وطفرت الدموع من عينيه وقبلها مودعا وقال لها إنه سيغادر البلدة منتصف هذه الليلة قاصدا طرابلس..

رجعت بهدوء وخفة ودست جسدها العاري إلى جانـب زوجها كأفعى لها فحيح من شدة البرد وما عانته من رعب وخوف افتضاح أمرها مشاركة إياه الغطاء..

خرج الغريب من داره متلحفاً بسواد الليل وكم كـــان سروره عظيما عندما لقي أحد تجار الشمال يتأهب لبداية رحلـــة العودة..

دفع مبلغا من المال الذي ادخره وحـــافظ علـــى جمعـــه وانطلقت السيارة بهدوء ثم ما لبثت سرعتها في الزيادة حتى استقر العداد على رقم (80) عندها فقط تنهد الغريـــب.. وبـــدون أن يدري انطلق لسانه بإيحاء من عقله الباطن يغني ويشدو بأغنية ليبية قديمة: (طار الحمام وصفقي يا وزة).

ورفع صوته بها وكأنه يهديها لبوقطاية والوالي.

استدعى الوالي بوقطاية بعد ثلاثة أيام من غياب الغريـــب متعجبا من سرعة بوقطاية في فعل الشر ظنا منه انه قتلـــه ودفنـــه خارج البلدة..

بوقطاية أيضا جن جنونه خلال الأيام الثلاثة الماضية باحثا عن الغريب أو عن من شاهده أو سمع أخباره أو حتى من يدله على مكان وجوده ولكن كل محاولاته ضاعت دون جدوى.

سأل نفسه وهو في طريقه إلى بيت الوالي أيخبره بأنه فشل في تنفيذ المهمة لعدم تمكنه من القبض عليه وفي هذه الحال يعـــرف

العقوبة التي سينالها لان الوالي يعده قد باح بالسر فهرب الغريـــب إذن لابد له أن يخفي الأمر ويتظاهر بأنه قتله.

طلب بوقطاية الإذن بالدخول على سيده مقـــبلا يديــه ورأسه كالمعتاد ودون حتى أن يفتح فمه بكلمه أمره الوالي بـــأن يذهب إلى المحاسب لاستلام جائزته.

تسمر في مكانه.. هل يخبره بأنه لم يقتله وليحدث ما يحدث أم يكتم سره في نفسه وفي أقل من دقيقة وصل للقرار المناســـب فالضرب والعقاب لا يحبهما أحد..

شكر سيده وهو يقول:

ــ أنا ذراعك اليمين تقطع حيثما وجهتها فاعتمد عليّ يا سيدي.

ــ قال الوالي حتى ذراعي اليمين اقطعها إذا لقيت فيهـــا ضعفا.. اصفرّ وجه بوقطاية وقال:

ــ يا لطيف...

عاد بوقطاية محملا بالهدايا لزوجته ولمخلوف وهو يقول:

ــ هذه أول مرة آخذ فيها مبلغا من المال مـــن ســـيدي الوالي عن عمل لم أقم به.. ويعلم الله أنني كنت انفـــذ العمـــل لا

رغبة في تنفيذ أمر الوالي أو إرضاء له بل كرها للناس وتحقيقا لمتعة أجدها عندما أنظر في عيون المعذبين على يديّ.

★ ★ ★

(18)

سألته زوجته:

ــ انه مبلغ كبير.. فما الذي كلفك به الوالي ولم تنفـــذه ونلت بسببه هذه الجائزة الكبيرة؟...

أجاب:

ــ إنه طلب مني أن أقتل الغريب ولكنه فلت من عقـــابي وسوف أنال منه ولو ذهب إلى طرابلس ارتعبت زوجته ثم قالـــت وكأنها تريد أن تصرفه للتفكير في اتجاه آخر قائلة:

ــ طرابلس.. وماذا يعمل في طرابلس؟

ــ لا أعلم.. لا أعلم.. ولكنني أعلم في قرارة نفسي إنني سألتقيه يوما وعندها الله وحده يعلم ماذا سأفعل به.. دعك منـــه الآن وناد على ابننا مخلوف ليشاركنا الطعام.

ــ مخلوف.. مخلوف.. قالها ثم أردف كمن تذكر أمرا فاته ألم تلاحظي معي أن به شبها من الغريب؟!

أجابت بدهاء الأنثى:

ــ قد يكون ذلك صحيحا إنك تعلم إنني كنـــت التقـــي الغريب خلال الوحم كثيرا ببيت الوالي ويبدوا أنه لشدة كرهـــي لذلك المسخ الذي اسمه الغريب انطبعت صورته بداخلي فجـــاءت صورة إبني على شاكلته.

ــ تقولي انك تكرهينه.. لماذا؟..

ــ هل تقصدي أنك لا تحبينه..

ــ لا بل أقصد إنني اكرهه ولقد صفعته يوما أمام الـــوالي لأنه شتمني.. قالت ذلك وهي تعلم علم اليقين أنه لا يستطيع أن يفاتح الوالي بمثل هذا الحديث.. أعجبه التبرير وحرره من عذابات الضمير فقال:

ــ صدقتي.. إنه لا يُحب، ولكن لماذا يا ترى كلفني الوالي بقتله!

قد يكون ضبطه يتجسس على شؤون بيته.. لقد رايته بأم عيني ليلاً وهو يتظاهر بالغباء ويستمع بانتباه لما يجري بين الـــوالي واحد القادمين من طرابلس..

كنت أنظف الغرفة المجاورة لصالة الجلوس يومها.

لعنة الله عليه لو أخبرتني بذلك لقطعت نفســه.. وصــل مخلوف لصالة الجلوس فقال بوقطاية تعال يا بني يا مخلــوف لقــد ظلمتك كثيرا وناوله قطعة كبيرة من الحلوى وشيء من الفاكهة.

أدخل بوقطاية إبنه إلى المدرسة.. وكانت الباديــة يومهــا ترى في المدارس بطالة تعرض من يدخلها للسخرية من أمثاله مــن البدو في حين أن الأهالي كانوا يسخرون من الذي لا يرسل ابنــه للمدارس.

كان مخلوف ليس طالبا ذكيا ولكنه كان ليس غبيا وكانت له قبضة فولاذية جعلت كثيرا من التلاميذ يهابونه فضلاً عن سمعة أبيه التي بلغت رائحتها أقاصي البلدة.

★ ★ ★

(19)

توطدت صلة الغريب بعد نزوحه إلى طـــرابلس بـــأفراد جاليته فسكن بينهم ونعم بالأمن وراحة البال ولكن ما زال حبـــه لـــ "لافية" يضنيه ويملأ عليه ليله فيشكو حرقة الحب إلى النجـــوم والحيطان في عالم لا يسمعه فيه أحد لذا أرهق نفسه بالعمل طوال النهار لينام الليل ولكن.

هل ينام محب وامق!

أجّر في البداية عربة يجرها حمار.. العربة اســـتأجرها مـــن جاره أما الحمار فاشتراه من أحد المزارع المحيطة بطرابلس.

ملا العربة بما يحتاجه الأطفال من لعب وحلوى وأشـــياء أخرى تحبها النساء.. وراح يجوب الأزقة والحواري وينتقل بـــين الأحياء والبساتين القريبة يبيع لهم ما يحتاجونه ويشتري منهم مـــا يريدون أن يتخلصوا منه كالأشياء القديمة وأكياس القمح الفارغة وغيرها..

عرفه الأطفال وأحبوه فكانوا ينتظرونه كل مساء ليشتروا منه قطع الحلوى والألعاب وتبتاع النساء الشاي الأخضر والأحمر والسكر وبعض حاجياتهن الخاصة.

ظل على حاله هذه ثلاث سنين جمع خلالها مبلغا مكّنه من فتح دكان صغير بباب الحرية لبيع العطرية.

كان من عادة أهل فزان التردد على هذا السوق لشـــراء حاجياتهم من العطرية خاصة في الصيف حيـــث تكثـــر حفـــلات الزواج.. فتعرفوا عليه لأنه كان يقيم بينهم وتعاملوا معه فكان لهم نعم الأخ والصديق يثق بهم ويثقون به..

اتخذ منهم صديقا يجالسه ويفضي كـــل منـــهما للآخـــر بمكنونات صدره.. وحدث أن دعا الغريب صـــديقه الفـــزاني إلى مترله لتناول وجبة العشاء معه وفاتحه بموضوع "لافية" .. ارتعـــد الفزاني وخاف.. خاصة انه ذاق مرة ألم الجلد على يد بوقطايـــة في تهمة لا يعرف عنها شيئاً حتى الآن ولكن الغريب أقنعه وقال لـــه هذه فرصتك لتنتقم منه.. وكذب عليه في أن "لافية" أخته ويريدها أن تأتي للعيش معه... هنا رق قلب الفزاني قائلاً:

أنت خير من يعرف أننا لا نحب أن ننتقم من أحد ولكننا نحب أن نساعد البائسين أمثالنا.

حمّله رسالة فأخذها وعاد إلى فزان محملا بالعطرية وأشياء أخرى دله عليها قائلاً إن تجار فزان الأثرياء يبيعونها وهي السبب في ثرائهم.

استأجر الفزاني بعد عودته أحد أقربائه الموثوق بحفظهـــم للأسرار وسلمه الرسالة طالبا منه مراقبة مترل بوقطاية من بعيـــد وعندما يخرج في الصباح عليه أن يتتبعه حتى يدخل مترل الـــوالي عندها يعود إلى "لافية" ويسلمها الرسالة..

نجحت الخطة وسلمها الرسالة.. وكان معمما من اجـــل التخفي.. حاولت أن تتعرف عليه أو على اسمه فرفض.. ناولتـــه بعض المال فرده عليها قائلاً إنه لا يأخذ أجرته مرتين.. وقفل عائدا من حيث أتى.

فضت "لافية" الرسالة وقرأتها وعرفت عنوانه بطـــرابلس فاستجمعت شجاعتها وبدأت في الاستعداد للهرب مـــن قبضـــة بوقطاية لملاقاة الحبيب..

بعد أسبوع عاد لها نفس الشخص ملثما ليخبرها أن الليلة هي موعد سفرها إلى طرابلس وأنه قد استأجر لها ولابنها مكانــا بإحدى السيارات الذاهبة إلى طرابلس وانه سوف ينتظرها نهايــة الشارع بعد منتصف الليل فما عليها إلا أن تتبعه دون أن تــتكلم حتى يوصلها إلى السيارة.

فكرت في خطة محكمة تقنع بها بوقطاية للخــروج تلــك الليلة وما أسرع ما لقيتها لذا عندما جاء بوقطاية للمترل وجــدها قد أعدت له وجبة دسمة وأخبرته بأن زوجة الوالي تعاني من بعض أمراض النساء وطلبت منها أن تأتي للمبيت معها عسى أن تحتاج إلى شيء أثناء الليل اشترط بوقطاية عليها أن تأخذ إبنها معها حتى ينقل له ما يحدث هناك.. وكانت هذه أمنيتها.

أخذت ابنها وانطلقت إلى بيت الوالي وبقيت به تســاعد سيدتها في تقديم أصناف الطعام للضيوف حتى منتصف الليل عندها استأذنت وخرجت بابنها شاهدت على البعد رجلاً معمما فتبعتــه حتى أوصلها إلى سيارة كانت تنتظر بجانب جامع اقعيد.. قال لهــا ذلك الرجل:

ــ لا تعطي أجرة للسائق فهي مدفوعة مقدماً.. انطلقـــت الشاحنة باتجاه طرابلس.

ــ سألها ابنها إلى أين نمضي يا أماه؟

لم تجبه تظاهرت بعدم الاكتراث وعندما كـــرر الســـؤال أخبرته بأنه مشوار قصير.

بعد مضي يومين تلعثم بوقطاية وهو يسال الـــوالي عـــن صحة سيدته بقوله:

ــ أرجو أن تكون صحة سيدتي بخير كما أرجو أن تكون "لافية" وابنها لم يسببا لكما إزعاجا.

حملق الوالي فيه باندهاش دون أن ينبس بكلمـــة وفجـــأة انفرجت شفتاه عن ابتسامة خبيثة مصحوبة بنفس خبيث وعبـــارة اخبث..

ــ ما معنى هذا؟

هل هربت "لافيه" كما هرب الغريب دون أن يعلم بهمـــا أحد تماماً كما جاءا؟ لا أحد يعلم من أين جاءا ومتى اختفيا؟

ــ ما هذه الألغاز؟

ــ هل تقصد يا سيدي إنها كذبت عليّ.. ولكن كيــف تجرؤ على أخذ إبني معها؟

ضحك الوالي بصوت حاول فيه أن تكون ضحكته أقرب إلى الابتسامة ثم نهض من مجلسه وهو يسب ويشتم رجال المباحث الذين لم يستطيعوا أن يضبطوا حالة هروبهما.. تنبه بوقطاية إلى أنه أخبر الوالي بقتل الغريب على يده وها هو يقول أنه هرب..

ماذا يفعل؟ ماذا يقول؟

استجمع كل مكره ودهائه في اختيار العبــارة الملائمــة وقال:

ــ ولكن يا سيدي لقد قتلت الغريب بيديّ هاتين.

قرب الوالي منه أكثر ثم قبض على خناقه قائلاً لولا إنـــني احتاج ليديك القذرتين هاتين لقطعتهما.. هل تظن بأنني غافـــل.. الأخبار وصلتني بأن للغريب متجراً بباب الحرية يبيع فيه العطرية.. ثم جعل قبضته تسترخي قليلاً قليلا.

قفز بوقطاية من الفرح قائلاً بسيطة ما دمنا عرفنا مكانـــه لنذهب إليه فنحضره ونقتص منه على كل جرائمه.

احمرت عينا الوالي وظهر عليه الغضب وهو يقول:

ــ وهل تظنه بولاية فزان يا معتوه؟..

ــ أقول لك انه بطرابلس ألا تفهم ماذا تعني طرابلس لا أحد يستطيع أن يمسه بسوء هناك كما أن أفراد جاليته لهم نفــوذ ظاهر بين رجالات الدولة وكبيرهم هو أحد مستشاري الملك.

ــ هل فهمت الآن لماذا لا نستطيع أن نقبض عليه؟

ــ ولكن ابني يا سيدي.. أأتركه لهم؟

ــ إنه ليس ابنك وأنت تعلم ذلك هذه العاهرة يبدو أنها كانت على علاقة بالغريب.. ألا ترى أنه نسخة طبق الأصل مــن أبيه.. الحمد لله ارتاحت الولاية من شرهما.. ثم قرب منه كأنما يريد أن يهدئ من غضبه لأنه لاحظ أن وجه بوقطاية صار أحمر.. ربت على كتفه واستطرد قائلاً سوف أزوجك من بنت بكر وصــغيرة وأقيم لك فرحا تتحدث عنه الولاية سنينا عدة.

أطرق بوقطاية إلى الأرض وراح يقلب الأمر ويحدث نفسه أتريد أن أتزوج لك بنتا بكرا لتزنى بها كما فعلت مع "لافية" يالك من رجل لئيم خدمتك بكل ما أستطيع فخنتني مع زوجتي وعيرتني بأن ما أنجبته كان لقيطاً..

استأذن بوقطاية من الوالي وخرج دون أن ينبس بكلمة..

كان الدم يغلي في عروقه فلم يلاحظ أخا الــوالي وهــو يلتقيه عند مدخل الولاية الذي تعجب من حال بوقطاية في عــدم احترامه له وعدم إلقاء السلام عليه.. كان الصراع يحتدم في قلب بوقطاية يأخذه بعيدا ويلقى به قريبا وفجأة توقف وبصق قبــل أن يخرج من الولاية ولعن الشيطان..

ظن أخو الوالي بأن بوقطاية يقصده فعلــق معرضــاً بــه مستحقراً إياه:

ــ عشنا وشفنا الشيطان يشتم نفسه بنفسه..

اسودت الدنيا في وجه بوقطاية واستوت الحياة بــالموت عنده فقال:

ــ أنا لست شيطاناً ولكنني أحد أعوان الشيطان الأكبر.

برقت عينا أخ الوالي وقال في نفسه إنه يقصد الــوالي.. ناكر الجميل هذا يقصد سيده.. انه يعظ اليد التي امتدت إليه لابد من معاقبته..

أسرها في نفسه ولم يبدها للوالي.. بعد يوم واحد وجــد بوقطاية مذبوحا من الوريد إلى الوريد وعلى جثته أثــار تعــذيب بالنار وجروح وكدمات..

سجلت الجريمة ضد مجهول تماماً كما كانـــت جرائمـــه تسجل ضد مجهول..

عد الوالي بأن قتله بهذه الصورة الشنيعة إهانة له شخصيا .. لذا لاحظ سكان الولاية ظهورا مكثفا لرجال البوليس في كـــل أماكنها بحثا عن المجرم الذي نفذ هذه الجريمة.

طار الخبر في كل اتجاه بأن بوقطاية وجد مقتـــولا ممـــثلا بجثته.. فعلق أحد الأهالي:

ــ (يا داير يا لاقي.. اللي اديره في الليل تلقاه في النهار).

ذهبت مجهودات رجال البوليس دون جدوى لان القاتل من الأسرة الحاكمة فكما يقال:

(إذا كان سارق الدار منها ما ينفع اللي يحاحي)..

سجد الحاج مختار شكرا لله قائلاً في سجدته بصوت سمعه كل من كان بالغرفة:

ــ (اللهم كما أمتّه، فأمت سيرته والحق به سادته).

فقال الحاضرون: آمين.

لم يتفطن أحد إلى أن هناك رجلاً مـــن المباحـــث مندســـا بينهم.. ما أن انفضت الجلسة حتى ذهب المخبر إلى القسم التـــابع

له بإدارة المباحث ليعلمهم بما سمع من الحاج مختار مقدما تقريـــرا مفصلا عما دار بالجلسة حتى كم كوبا من الشاي الأخضـــر قـــد شرب كل واحد منهم مكتوب وان زاد بعض الكذب من عنده..

استدعي الحاج مختار في اليوم التالي وحقق معـــه فـــأنكر وطلبت شهادة الحاضرين معه.. وفعلا استجوب الجميع فـــأنكروا أنه قال ذلك وإن اقروا بما جاء في التقرير من كلام آخر.

★ ★ ★

(20)

وفي المساء مع العصر استأجر الوالي اثنين من الأهالي لدفن بوقطاية بعد أخذ جثته من المستشفى .. قائلاً:

ادفنوه.. لم أجد أحدا من الناس رضي بأن يسير في جنازته.. أرجو أن تقبله أمه الأرض وإن كان ابناً عاقاً..

فقال أحدهما.. المسافة بعيدة بين المستشفى والمقبرة يا سيدي نريد سيارة تحمله لنا والباقي علينا..

استدعى لهما سائقا لإحدى سيارات نصف النقل.. ركبا فيها إلى المستشفى ومنه إلى المقبرة تركهما السائق هناك وعاد..

وهكذا قبر بوقطاية كما تقبر الحيوانات النافقة أو كأي مجرم سفاح.. لم يصل عليه بل فتحت

له حفرة في أقصى المقبرة بعيدة عن القبور وقذف بها وأسدل الستار على حياة رجل شغل الولاية زمنا..

استولى الوالي على كل ممتلكات خادمه بوقطاية الثمينة وكم كانت دهشته كبيرة عندما اخبر بأن كثيرا من مقتنيات بيته المسروقة والتي اتهم بها ظلما بعض ضيوفه وجدت موضوعة على أرفف حجرة الاستقبال وبغرفة النوم بمنزل بوقطاية.

★ ★ ★

(21)

مع أول سيارة عائدة إلى طرابلس تحمـــل كـــثيرا مـــن (الحصران) و(القفاف) و(التكونيا)، وصلت أخبار موت بوقطاية للغريب.. استبشر وقفل باب متجره وذهب مسرعا ليبشر "لافية" بالنبأ..

لم تستطع أن تملك نفسها من الفرحة فأطلقت زغـــرودة طويلة وقامت بتوزيع مشروب (الروزاطة والنعناع) على جيرانها..

كان مخلوف غائبا وعندما فتح له الباب لاحظ رجلاً اسمر نحيل الجسم بصالة الجلوس.. أطلق عليه التحية فردهـــا بأحســـن منها.

وقف الرجل وضمه إلى صدره واخبره بموت والده وهـــو يقول:

ــ (كل من عليها فان).. لقد انتقل والدك إلى جوار ربه الكريم..

فقال الغريب بل قل انتقل إلى جوار ربه المنتقم.. ثم رفـــع يديه إلى السماء وهو يقول: الله ينتقم منك يا ظالم فأرواح النـــاس

وأموالهم وأعراضهم لا يمكن أن يصفح فيهـــا الله لأنهـــا خاصـــة بالبشر..

هذا كله ومخلوف جالس يستمع لم تطفر منه دمعة واحدة فهو لا يحبه بل يكرهه وفي كثير من الأحيان تمنى أن يخنقه بيديه..

جاءت أمه بمائدة العشاء وعليها أطباق من طعام فـــاخر وهذا يدل على احتفاليه غير معلن عنها بموت بوقطاية.

لم يخف مخلوف دهشته بل واجه أمه بالحقيقة.

ــ هل أنتم محتفلون بموت والدي؟

ــ أجابت بغضب.. انه ليس والدك.

ــ أعلم ذلك.. ولكن في شهادة الميلاد القديمة قبـــل أن نغيرها فيها ما يشير إلى ذلك ثم توجه إلى المائـــدة وراح يقـــذف الطعام في فيه الذي لا تستقر فيه اللقمة أكثر من مضغتين أو ثلاث ليسقط في جوفه مرورا برقبته محدثا صوتا وكأنه دن مـــن دنـــان الخمر أو زير ماء سقط فيه حجر.

بعد أن شبع تناول قلة الماء وراح يصب الماء في فيه كمـــا يصب في الإناء إلى أن ارتوى فتنحنح ورجع للخلـــف وتجشـــى بصوت بغيظ ولم يتحرك من مكانه إذا أغمـــض عينيـــه وراح في

سبات نوم عميق يطلق من فيه بين الحين والحين صوتا كصفير هواء خارج من إناء ضيق عندما وقف الضيف قاصداً المغادرة شـــاكراً حسن الضيافة استيقظ مخلوف وتناول القلة مرة أخرى وشــــرب منها بنهم شديد ثم سال الضيف متى تنوي السفر إلى فزان؟

تدخلت والدته قائلة:

ــ ولماذا؟

ــ لأنني أنوي السفر إلى سبها لآخذ حقي من التركـــة.. فهل تمانعين؟

ــ لا أبدا.. فقط أردت أن تراجع نفسك.. لان أعـــداء أبيك المشطوب من شهادة الميلاد كثر.. وأخشى عليك منهم.

ــ لا تخافي فلن أمكث هناك أكثر من ثلاثة أيـــام علـــى الأكثر.

ــ رافقتك السلامة يا بني.

تدخل الغريب في النقاش وسال ابنه:

ــ لماذا تسافر مع الفزاني.. بإمكانك السفر على شـــركة النسر أو الهادي حمودة فهي أكثر راحة وأسرع.

كانت الحافلة تبدأ رحلتها بعد الخامسة مساء.. أي بعيـــد العصر وتصل سبها قبيل الفجر..

لذا ذهب مخلوف صباحا إلى مكتب الحجز بجانب (الريجية) مصنع التبغ وحجز تذكرة سفر..

ومع المساء ركب الحافلة وتوجه تلقاء سبها..

لم يكن فندق النخيل بعيدا عن المحطة.. دلف إليه طالبـــا غرفة نوم ليوم واحد..

ارتعب عامل الاستقبال وسرت به رعشة لاحظها مخلوف وهو يدون الاسم في سجل النزلاء رافعا صوته باســـم النزيـــل.. مخلوف بوقطاية!!

قال رجل واقف إلى جانبه..

ـــ (يا حفيظ .. يا أرض احفظي ما عليك)..

سلمه مفتاح الغرفة واستخدم الهاتف ليعلم القسم التـــابع له بدائرة المباحث أن ابن بوقطاية نزيل بالفندق.. سأله الذي على الطرف الآخر من الخط.

ـــ هل تحققت من هويته؟

ـــ نعم إنها شهادة ميلاد.

ـ أشكرك.. وقفل الخط.

وصل الخبر في أقل من ساعة إلى الولاية التي صارت تترقب قدومه.

وهذا ما حدث فعلا.. استأذن مخلوف لمقابلة الوالي وجاءه الرد سريعا أن تفضل بالدخول.

سلم مخلوف على الوالي مقبلا يده ورأسه كما كان يفعل في صباه ثم جلس على أريكة بجانب الوالي.

بدأ الوالي الحديث.

ـ هل تريد أن تخلف والدك في وظيفته فالمكان ما زال شاغرا ولم أعين فيه أحد.

ـ كلا يا سيدي أريد فقط أن أحظى برؤيتكم وأخذ حقوق والدي وبيع البيت والرجوع إلى طرابلس.

سلمه الوالي المفتاح قائلاً هذا كل ما يملكه والدك وأظن أن المترل لامك بإمكانك أن تبيعه وتعود إلى طرابلس.. أما مستحقاته فلا أظن أنها تكفي لسداد ديونه والسلف التي أخذها على مرتبه.

لم يحتج مخلوف على ما جاء في حديث الوالي بـــل علـــى العكس شكره وخرج دون حتى أن يحتسي الشاي الأخضر الذي أحضره له شخصياً.

كانت رائحة المترل كريهة ونوافذه مغلقة والترب يغطـــي كل ما بالمترل من أثاث متبقي وخيوط العنكبوت تتدلى كثريـــات من السقف لذا فتح النوافذ وبدأ هواء المترل الخامـــل يـــتغير في أرجاءه.

حاول أن يستحضر ذكرياته بدأت له كحلم ثم اغمـــض عينيه وقال: الحياة كلها حلم والناس نيام..

لاحظ بقعة دم كبيرة تغطي جزء من غرفة النوم.. عرف أنه دم بوقطاية..

قفل الباب وراءه ثم ذهب إلى سوق اقعيد وأحضر عاملا وطلب منه تنظيف المترل..

وفجأة تذكر الخزنة التي كانت أمه وأبيه يستخدمونها تحت (البرانده).. طلب من العامل أن ينتظره بالخارج ثم قفل الباب من الداخل بالمزلاج.. وكم كانت فرحته عظيمة عندما وجد بها مبلغاً كبيراً من المال عده فوجده ثلاثة آلاف وستمائة جنيه فقال هـــذا

المبلغ يساوي عشرة منازل وادخل يده في الخزنة مرة ثانية واخرج قلادة وسوار من ذهب وخلخال فضة ثم فتح الباب وطلب من العامل أن يعود إليه بعد ساعة.

بحث داخل المترل عن حقيبة أو كيس فوجد حقيبة قديمة وضع بها ما بالخزنة وحملها على ظهره وخرج.

بعد ساعة عاد العامل ونظف المترل..

سأل مخلوف الجيران عن من سرق مترلهم.. فاخبروه أن الوالي بعث بسيارة رفعت كل ما من شانه أن يؤخذ.

بعد يومين باع المترل وذهب إلى مكتب الحجز وابتاع تذكرة سفر للعودة.. ثم أخذته العاطفة فقال في نفسه أليس من حق بوقطاية عليه بعدما تحصل على كل هذا المال أن يذهب إلى المقبرة ليقف عند قبره مترحماً..

ذهب على قدميه إلى المقبرة وجد بوابتها مشرعة سال بعض الشباب الذين كانوا يطوفون بالضريح منشدين بعض الأناشيد الدينية عن قبر بوقطاية.. نظروا إليه باستغراب ولم يتحدثوا معه وأشاروا بأصابعهم ناحية القبر واستمروا في الطواف والإنشاد.

أعجبه منظرهم وهم يصفقون ويقولون مدد يا سيدي .. مدد يا فحل الرجال .. مدد ..

طلب منه أحدهم أن يدخل معهم في حلقة الطواف فرفض واتجه صوب بوقطاية مخاطبا إياه:

ــ ليرحمك الله واستدار ليعود من حيث أتى.. لاحـــظ أن تلك الجماعة التي كانت تطوف بالضريح قد خرجت لتوها مـــن باب المقبرة فعلم أنه بقي إلى جانب قبر أبيه مدة طويلة.

اجتاحته رغبة ملحة لمعرفة ما بداخل تلك الحجرة الـــتي كان الشباب يطوفون بها.

ذهب ناحيتها بخفة ورشاقة ودخل من البـــاب الضـــيق القصير فقال في نفسه أن الذي صنع هذا الباب يريد ممن يدخل إلى الضريح أن يكون واحداً وراكعاً .. فلا باس..

وجد على القبر مبلغاً من النقود وضعها أصحابها لتقضي حاجياتهم ببركة صاحب الضريح فمد يده ليأخذها ولكنه قبل أن يمسها سمع صوت امرأة تقول لا تفعل هذا رزقي من هؤلاء المغفلين ومدت يدها لتأخذ.

النقود كان ساعدها رقيقا شاحبا ذو عــروق واضــحة وأظافر يدها طويلة وقذرة.. حول نظره إلى وجهها قابلته بعيــنين بياضهما أكثر من سوادهما أما السواد فيهما فكان نقطة صــغيرة جداً.. أحس بخدر يسري في أوصاله وبأنه لا يســتطيع أن يرفــع جفونه ثم أحس بجفونه تطبق على بعضها.. كانت عيناها تبرقــان بشدة ثم تحولتا إلى عين واحدة ثم صار الوجه كله عينا كــبيرة لم يتحمل المنظر فسقط مغشيا عليه.. سلبته أمواله وحذائه وتوارت في قبو تحت الأرض لا يراه الإنسان إلا إذا كان واقفا إلى جانبــه وأمعن النظر فيه.

★ ★ ★

(22)

عندما فتح مخلوف عينيه كانت الظلمة حالكة تملا المكان.. أحس برعب وخوف ينتابانه.. كان قلبه يخفق بشدة.. رفع حقيبته وهم بالخروج وجدها خفيفة فانطلق بها إلى خارج الغرفة.

اكتشف أنه قد سُرق ماله وسلب حذائه.. بكى من اللعنة التي ترافق بوقطاية لعنه الله حياً وميتاً.. ثم حار فيما سيفعل..

عاد إلى غرفة الضريح نظر إلى الساعة الــتي في معصــمه وحمد الله على أنها لم تسرق.. ثم تذكر أن من يقيم بين القبــور لا حاجة له بمعرفة الزمن كل هذه الأفكار وغيرها مرت به بســرعة خاطفة وسلّم نفسه لسنة من النوم أفاق بعدها على صوت المؤذن وهو يدعو الناس للصلاة.

أحس بالجوع.. قال في نفسه لابد أن أمسك هذه العجوز الشمطاء لا سترد مسروقاتي.. ولكن كيف لي أن أمشي بين الناس حافيا.. في هذه الأثناء بدأت الشمس ترسل أول خيوطها علــى الأرض فبانت له شواهد المقبرة كرجال واقفون في مظاهرة أمــام

الضريح.. أحس للحظة انه هو صاحب الضريح اتجه بنظره ناحية قبر بوقطاية وبصق عليه..

فجأة سمع أصواتا تتخاصم فتبين أنها لأربعة رجال.. اختبأ وقرر سرقة حذاء أحدهم بعد خلعهم لها خارج باب غرفة الضريح.

وضع الأربعة أحذيتهم خارج غرفة الضريح واتجهوا صوب صاحبه مباشرة.. طلبوا من أحدهم أن يضع يده على الضريح ويقسم باسم الولي لا باسم الله.. حاول أن يخدعهم فيقسم بالله ولكنهم فطنوا لحيلته.. لذلك رفع يده عن الضريح واعترف لهم بالسرقة.

سرق حذاء أحدهم ولبسه وانطلق بسرعة السهم خارج المقبرة.. ذهب إلى أول دكان لبيع وتصليح الساعات.. باع ساعته (الهيرمة دي لوكس).. لم يكن المبلغ كبيراً ولكنه يكفي لشراء عدة وجبات خفيفة.. التهم عدة سندوتشات ثم أحس على أثرها برغبة ملحة للنوم.. ذهب إلى جامع اقعيد ذلك الجامع الذي لم يدخله في حياته قط.. وتمدد على حصيرة مصنوعة من الديس وراح يغط في نوم عميق.

رفسه المؤذن قائلاً: قم فتوضأ حان وقت صلاة الظهـــر.. فتح عينيه وحاول أن يرفع رأسه فلم يستطع عاد إلى النـــوم مـــن جديد.

عاود المؤذن رفسه بقدمه ولكن هذه المرة بعنف اكـــبر.. تأوه مخلوف من شدة الضربة.. وقال له لا أريد أن اصلي دعـــني أنام أنت لست ربي.. إذهب إلى الجحيم.. الدين يسر.

قال المؤذن وقد زاد عدد المصلين لنقذف هـــذا الضـــال خارج المسجد.. حاولوا رفعه إلا انه وقف وامسك بلحية المـــؤذن وخاطبه:

ــ ألا تعلم من أنا؟.. أنا مخلوف بن بوقطاية إن لم تغـــرب عن وجهي أكلت كبدتك بعد أن أشق بطنك بهذا السكين.. هرب الجميع من حوله وبقيت لحية المؤذن في يديه.. قبض عليها بعنـــف فصرخ المسكين يطلب النجدة.. لم ينقذه أحد لان المصلين بعضهم ترك حتى الجامع وهرب أما الباقون فظلوا ينظرون إليه من بعد..

أرخى مخلوف قبضته وعاد إلى نومه من جديد أما الإمـــام فلم يزد عن قوله:

ــ حسبنا الله ونعم الوكيل..

حاول بعض المصلين الرفع من عزيمة المؤذن لأنه بدأ ينهار ويبكي كطفل صغير..

ــ قال المصلين: تشجع فأنت مؤذننا والمؤمن مصاب..

قال الإمام الذي لم يتدخل في المعركة:

ــ لا تعجبوا من فعل هذا الشقي أليس هو ابن بوقطاية؟

ــ إنهم ذرية بعضها من بعض.. ثم اتجه بحديثه للمؤذن..

ــ أقم الصلاة.. يومها سمع الجميع بكاء المؤذن في الصلاة..

قال بعضهم هنيئاً له لقد رزق الخشوع في صلاته.. وعلق بعض الخبثاء من المصلين:

ــ لعله يتألم بسبب ما أصابه من قبضة مخلوف..

★ ★ ★

(23)

عندما استيقظ مخلوف من سبات نومه كانـــت الشـــمس تودع القرية والنهار يحتضر على رؤوس نخيلها.. خرج من المسجد واتجه إلى أقرب كشك لبيع السندوتشات طلب سندوتشاً بالبيض وآخر بالتن.. ملأت خياشيمه رائحة المفروم.. أحـــس برغبـــة لا تقاوم تجاهه طلب (سندوتشين) منه أكلهما بسرعة وشرب كوبـــا من الشاي الأحمر المنعنع.. ثم اتجه صوب المقبرة باحثاً عن العجوز.

كان البخور يغطي مساحة شاسعة مـــن المقـــبرة.. سمـــع أصوات الدفوف يصاحبها صوتا رخيما ينشد بعـــض القصـــائد الصوفية تمجد صاحب الضريح.. وكلما سكت ارتفع صوت آخر ينادي على صاحب الضريح.. أغثنا، لذنا بحماك، جـــار الزمـــان علينا.

هيا يا سيدي مدد... مدد.. يا سيدي.. مدد.

كانوا وهم يقصدون يطوفون بالضريح ويتمسحون بـــه كقطط أليفة.. بعضهم طالب للبركة وبعضهم للإنجاب وبعضـــهم من أجل الحصول على قرض ربوي وبعضهم للانتقام من الـــوالي

الذي ضربه بالسوط السوداني أمام الناس فضاعت هيبته.. إلى غير ذلك من قائمة الطلبات التي لا تنتهي.

تتبع مخلوف وجوه الحاضرين وفجأة التقت عيناه بعـــيني تلك المرأة القبيحة حاول أن لا يركز النظر في وجههـــا حـــتى لا تسحره فيغمى عليه..

خاطب نفسه هذه فرصتي فانقض عليها تملصت من بـــين يديه وهربت منه فتتبعها.. لاحقها ولكن ظلمة المكان حالت بينه وبينها فغابت بين القبور.

قضى ليلته الثانية بجانب الضريح.. وفي الصباح ذهب إلى السوق واشترى سندوتشا وشايا وعد ما تبقى له من نقود فوجد أنها لا تكفي إلا لشراء بعض السندوتشات.. خاطب نفســـه إن لم أعثر على العجوز الليلة مت جوعاً غداً.

تسكع بسوق القرية وعاكس بعض النساء بألفاظ فاحشة استفزته واحدة بقولها (الكلب الذي ينبح لا يعض).. أن كنـــت رجلاً فأت بنقودك وسر خلفي وأرني كيف تعض.. لم تكن له نقود ليجرب عضته.. لذا هرب منها والناس تضحك من حوله..

وبينما هو يسير في الطرقات على غير هدى قابل بعض زملاء الدراسة من الأهالي.. دعاه أحدهم لتناول وجبة الغذاء معه فقبل الدعوة..

كان المترل صغيراً مما جعل غرفة الجلوس تستخدم للنوم أيضاً.. ليس بها أثاث إلا من فراش طويل وبعض الوسائد المتناثرة بأنحاء الغرفة.. جلس قبالة الباب.

غاب صاحبه لفترة من الزمن فاستغرق في النوم وعندما استيقظ كانت رائحة الطعام تملا الغرفة أكل بشراهة كأنه لم يتناول طعاما قط.. وبعد أن شرب الطاسة الخضراء الثالثة بالكاكاوية.. استأذنه صاحبه في الخروج لتأدية صلاة العصر.

ـ علق مخلوف قائلاً: أنتم، يقصد الأهالي، تحبون المساجد والصلاة أكثر مما يجب.. ثم أعقب قوله بقهقهة تنم عن عدم إيمان..

سأله زميله أن يذهب معه للصلاة فلم يجبه بل ودعه وشكره على وجبة الغذاء.

أحس برغبة لا متناهية تدفعه باتجاه المقبرة.. ذهب إليها واتجه إلى غرفة الضريح واستلقى على حصيرة وراح يفكر فيما

سيفعله ليجد العجوز الشريرة.. قال في نفسه إنها تشاركني السكن في هذه المقبرة..

وقف وأخذ يدور بين القبور حتى أظلمت المقبرة وأدركه الإعياء فاسلم نفسه للنوم وهو يتكئ على شـــاهد قـــبر قـــديم.. استيقظ على صوت حركة أقدام خفيفة تمر بجانبه وتقترب منه.

كم كانت فرحته كبيرة عندما وجد نفسه قبالـــة تلـــك الشريرة مباشرة هرب بعينيه من وجهها وأمسك خناقها ثم رفعها إلى أعلى وأسقطها إلى الأرض بعنف وجلس على صدرها ليكـــتم أنفاسها أو تعطيه مسروقاته.. أجابته إلى طلبه بصوت مهموس:

ــ قم من على صدري واتبعني ستجد ما يسرك.. حاول سحب يده من يدها قائلاً:

ــ أنا لا أريد أن أشاهد ما يسرني أنا أريد مسروقاتي أيتها العجوز القذرة.. في هذه الأثناء لقي نفسه بجانب قبو مـــر بجانبـــه عدة مرات ولم يتبينه.. كان الظلام دامسا بداخله فقالت له بلهجة آمرة:

ــ اغمض عينيك وانظر بقلبك.

ــ سألها: وهل ترى القلوب؟

ــ قالت نعم إذا كان أصحابها من العارفين وأنشدت:

قلوب العارفين لها عيون

ترى ما لا يراه الناظرون

سمع صوت حشرجة تصدر من شخص ما بالداخل لم يره وكانت هي بالقرب منه والصوت آت من مكان بعيد لذا سألها:

ــ هل يشاركك السكن بهذا القبو شخص آخر؟

ــ نعم إنه زوجي وأشعلت فناراً فشاهد كومة من العظام يغطيها جلد تنظر إليه هرب بعينيه منه حتى لا يتقيأ.

قالت العجوز:

ــ أنت أول إنسان يدخل إلى هذا القبو.. أنت يا سيدي بالعالم السفلي.. استحضر شجاعتك وحضر قلبك لرؤية مشاهد لم ترها في حياتك ولن ترها بعد خروجك من هنا.

ــ صرخ في وجهها أنا لا أريد أن أرى شــيئاً.. اعطــني حاجياتي ودعيني انصرف.

فابتسمت وقالت:

ــ (ليس دخول الحمام مثل الخروج منه)..

حاول أن تخرج.. لن تجد الباب.. لابد لك أن تقيم ثلاثة أيام بلياليها بعدها تأخذ حاجياتك من وسخ الدنيا وتنصرف.. أو إن شئت بقيت لتطهر قلبك من أدران عالمكم.

ــ صرخ بحدة.. هل أنا مخطوف؟

ضحكت فاكتشف أن لا أسنان لها وهذا هو سبب كون كلامها فيه غمغمة لا تفهم إلا بصعوبة يشعر السامع وكأنها تتكلم من داخل بئر عميق.

تدخل كومة العظام الذي لا شيء فيه يدل على الحياة إلا فتحة صغيرة اسفل وجهه اسمها فــم مجازاً قائلاً:

ــ لا تضيعي الوقت خديه إلى أسفل ليرى العالم الســفلي على حقيقته.

أجابه مخلوف:

ــ وهل هناك سفلي بعد هذا القبو؟

لم يجبه أحد بل أخذته العجوز من يده ونزلت به إلى جوف الأرض عبر سلالم متصلة بعضها ببعض.. ضيقة وكريهة الرائحة.

حاول أن يعترض ولكنه أحس بخدر في أعضائه وأن فمه لا يقوى على الكلام.

بلغا مكانا يجتمع فيه الشيء وضده.. حرارة وبــرودة.. عفونة وطيب.. ثلج ونار.

فتحت فوهة صغيرة فانبعثت منها روائح كريهة وحــرارة مرتفعة.. أخرجت من إبطها قنينة صغيرة سقته منها شراباً غليظــاً وكريه الطعم والرائحة.

شعر بدوار ثم تقيأ.. حتى أفرغ ما في أحشائه.

ـــ قالت: أنت الآن طاهر من كل النجاسات وبإمكانــك أن تشاهد بقلبك وتذكر أن الصوم والخلوة هما أقصــر الطــرق للمشاهدة بالقلب.

تركته وانصرفت وقالت وهي تدير له بظهرها سوف أعود بعد ثلاثة أيام لاصطحبك إلى عالمك العلوي.

حاول أن يتشبث بها ولكن يداه خانتاه فلم يجــد فيهمــا القوة الكافية وتلاشت هي بسرعة.

بقي لوحده في غرفة صغيرة.. سمع ضحك وصراخ.. شعر ببرودة وسخونة تنبعث من تلك الفوهة المفتوحة.. دفعــه حــب الاطلاع للنظر ويا لهول ما رأى!.

رأى بشراً تحرق جلودهم النار وشـــم رائحـــة الجلـــود البشرية المحروقة.. حاول أن يتقيأ ولكن جوفه كان فارغا من كل شيء.

ازدادت رائحة العفونة حتى ملئت عليه الغرفة.. أمعـــن النظر بدقة فرأى جلودهم تبدأ بالتلاشي من شدة وهج النار مـــن أعلى الرأس حتى أخمص القدم فيزداد صراخهم وعويلهم.

رفع بصره إلى أعلى فشاهد كرسيين كبيرين يجلس علـــى أحدهما رجل في مقتبل العمر ضخم الجثة لونـــه كلـــون الأرض.. وتجلس على الكرسي الثاني امرأة ربعة لونها كلون الرجل وكأنهـــا خلقت منه.. يدعى الرجل "أديم" وتدعى المرأة "هواء".

كان الرجل والمرأة يبكيان بحرقة وهما ينظران إلى أولئـــك البؤساء حتى بدأت عيونهما تنزف دماً بدل الدموع من شدة البكاء وحرقة الألم ولوعته وكأن المحروقين أبنائهم.

وفجأة توقف بكائهما ونظرا صوب اليمين فإذا بقهقهـــة ونكات وفرح وأغان والحان.. لاحظ أن وجه أديم وهواء بدءا في الانشراح وازداد طربهما.. وبينما هما على تلك الحال من السرور إذ دخل عليهما صبي كأنه البدر ليلة تمامه يحمل لهما كآسين مـــن

شراب أعطى الكأس الأزرق لأديم وسلم الكأس الأحمر لهواء.. ثم رجع من حيث أتى.

تبعه مخلوف بنظره حتى توارى.. ثم رفـــع بصـــره فـــوق الكرسيين فرأى عدة شموس صغيرة منيرة تتحلق حول كل شمـــس منها مجموعة من البشر عدد بعضهم قليل وعدد بعضـــهم يغطـــي الأفق.

وبلا مقدمات شعر بحرارة جسد العجـــوز إلى جانبـــه.. حاول أن يتحسسها بيده ليتأكد فلم يستطع.. سمعها تقـــول لـــه اغمض عينيك وأنظر بقلبك.. طاوعها وأغمض عينيه وبدا تراسل الحواس معها ومع ما يشاهد..

ـــ سألها من تكن تلك الشموس؟.

ـــ فأجابته.. إنهم الشفعاء وهـــؤلاء المتحلقـــون حـــولهم أتباعهم.

علت أصوات موسيقى راقصة فنهض أديم واضـــعا يـــده حول خصر هواء وانطلقا في رقص أخاذ كانا يستمتعان بـــالرقص وكانت تهز أردافها في حركات شهوانية فتدفع أديم إلى أن يعصرها بعنف إلى صدره ويقبلها ثم يطلقها ترقص من جديد.

استمرا على هذه الحالة أكثر من عدة ساعات حسب تقديره للزمن.. ثم عادا إلى كرسييهما وبدت على محياهما علامات الوقار رفعا أيديهما إلى أعلى وقالا:

ــ يا الله يا إلهنا وإله كل شيء.. نزلت على رأسيهما أنوار تفوح منها روائح ما استنشقها مخلوف في حياته.. وبدءا يذوبان فيها صاعدين إلى أعلى.. ثم التحمت بهما الشموس بينما ظل الاتباع كل في مكانه.

نظر إلى الكرسيين فرآهما خاليين من صاحبيهما وما هي إلا لحظات حتى بدأت الأنوار في النزول على الكرسيين كرسي أديم غمره لون أزرق وكرسي هواء غمره لون أحمر.. ثم انقطع النور العلوي وبدأت تلك الأنوار على الكرسيين تأخذ الشكل البشري.. وما هي إلا أجزاء من الثانية عاد أديم وهواء إلى صورهما الأولى وعادت الشموس إلى مكانها.

التفتا.. أديم وهواء ناحية الشمال وعاودا البكاء وبدأت رائحة الجلود المحترقة في النفاذ إلى حلق مخلوف.. حاول ان يتقيأ ولكن دون جدوى.

بدأ من جديد في تراسل الحواس مع العجوز وكأنه يحس بحرارة شفتيها على أذنه تقول له:

ــ بما أنك أول من دخل وآخر من سيأتي إلى هنا سأبوح لك بسر الأسرار معترفة أنني توصلت إليه بكثرة المراقبة والمران والجوع..

إذن فاستمع:

إن أصحاب القلوب السوداء من البشرة بعالمكم هم الذين تعذبوا في النار التي شاهدتما منذ قليل.. وكلما كانت درجة سواد قلوبهم حالكة كلما دلت على أنهم بقوا في النار مدة أطول من غيرهم.. وهكذا.

وأن جهنم هي ما رأيته من نار بجوف الأرض.. والسعيد هو الذي ترفع روحه بعد أن يقبر إلى بارئها.. أما الآخرون فلهم ما رأيت من عذاب.

إن درجة حرارة جوف الأرض تعادل ملايين الدرجات مما تعدونه من درجات الحرارة فوق سطحها.. لذا فالذين حسنت أعمالهم تصعد أرواحهم إلى السماوات السبع كل حسب ما قدم

في دنياه.. فكلما كان أنقى كلما ترقى حتى يصل إلى السماء السابعة حيث المتعة بالمشاهدة.

هذا عن عذاب جوف الأرض ونعيم السماوات السبع أما فوق سطحها فالأعراف لمن تساوت حسناته وسيئاته وفي الدورة السابقة كان أغلب ساكنيه من الحكام والملوك العرب وسلاطين الرعب في العالم الثالث فهم يرون أهل النار فيجن جنونهم من الخوف وتغلي أدمغتهم لقربها منهم وفي الجهة الأخرى يرون أهل الجنة ونعيمهم فيسيل لعابهم.

ونتيجة لهذا التذبذب في المشاهدات كان التذبذب في المواقف عندهم وعدم معرفتهم الصواب من الخطأ.. لذا فعندما يأتي الصيف يتذكروا النار فتزداد كراهيتهم لكل شيء فيدمرون حتى ما بنوه ويقتلون دون جريرة وعندما يأتي الشتاء يحاولون أن يصلحوا ما افسدوا لأنهم يتذكرون الجنة..

ولا أبوح لك بسر إذا قلت إن درجة السواد في قلوب البشر تعادل درجة الكفر في الدورة السابقة، فاشد الناس كفراً وتدميراً للكون هو من خلّد أطول فترة في النار فخرج إلى العالم بقلب حالك السواد.

ومن لطف الله أن جوف الأرض يقذف المجرم كنطفة تدور حول الكون حتى تحل في ظهري الأم والأب فلا يدري مـــن هـــو ولماذا جيء به إلى هذا العالم.

أما الصالح من البشر فيترل من الجنة مع حبيبات الـــبرد ليستقر برداً وسلاماً في ظهري أمه وأبيه.

أما عن الفقر والثراء فقالت العجوز.. تختلف درجته بـــين البشر فبقدر ما تصدّق الإنسان في عالمه الأول بقدر ما يتحصـــل على الثراء في عالم الذي يعيشه الآن.. ومن بخل بما عنده.. بخـــل عليه بما عند الله.

وعن أنواع الرزق قالت من تصدق من الفواكه كان من أصحاب المزارع.. ومن تصدق من المواشي صار مـــن أصـــحاب المراعي.. ومن تصدق نقود صار من أصحاب المصارف وهكذا.

أحس مخلوف أنه بدأ يسترجع السيطرة علـــى حواســـه وأعضاء جسده وعقله.. وفي لمح البصر قفلـــت تلـــك الفوهـــة الكريهة وأحس بأن يداً تلامس كتفه فارتعب ورفع بصره فـــرأى العجوز تقول له بلهجة آمرة..

قم إلى عالمك العلوي ولا تعد إلى هذه المقبرة مرة ثانية إلا محمولاً على الأكتاف لتقبر.. إنني أحذرك.. صعد الســـلم وهـــي تتقدمه وجسده ينز عرقاً.

لاحظ أن كومة العظام ليست في مكانها.. ســـأل عنـــها فأخبرته أن زوجها أخذ مكانه بتلك الغرفة فـــالنظر مـــن خـــلال الفوهة هو أحب إليه من أي شيء.. فكرر مخلوف بخبث:

ــ من أي شيء!

عرفت ما قصده بتكرار عبارتها فأجابته بأنهما لم يمارســـا الجنس منذ زمن ليس بالقصير.

ــ سألها: ولكنني لم أره بتلك الغرفة؟

ــ فقالت: وكيف لرجل ظل ثلاثة أيام بلا شـــراب ولا طعام وعيناه مفتوحتان أن يرى ما حوله.. إن الأمر ليس بالسهولة التي تظن.. ثم أردفت قائلة:

ــ سوف تنام بعد خروجك من هنا ثلاثة أيام.. أعطتـــه حاجياته وأخذته من يده إلى شاهد القبر الذي وجدته نائماً بجواره وما أن لامس جسده الأرض حتى استغرق في نوم عميق.

عندما استيقظ كانت الشمس في كبد السماء.. وكـــان العرق يتصبب منه.. تذكر كل ما حدث له داخل القبـــو وقـــال لنفسه:

لقد كان حلماً فظيعاً.. بل كابوس مريع.. لقد نهتني أمي أن لا أنام بين القبور..

التفت حوله فصاح من الفرح هذه حاجيـــاتي وداخلـــه الشك هل ما شاهد بالقبو كان حلماً أو حقيقة؟

أقنع نفسه بأن لا يهمه إن كان حلماً أم حقيقة ما دام قد تحصل على حاجياته.. وحانت منه التفاته قبالة قبر بوقطاية فـــرأى تلك العجوز تقف مستندة إلى شاهد القبر وهي تلوح له بيـــدها.. أشاح ببصره عنها ووقف ليغادر المقبرة.. أحس ألم الجوع ولسعته في أحشائه فهرول باتجاه البلدة.

دخل مطعم شعبي بجانب جامع اقعيـــد طالبـــاً فصـــوليا بالكرشة وأربعة أرغفة.. وفي لحظات التهم كل ما على الطاولة.. ورجع بكرسيه إلى الخلف وتجشى بصوت مسموع.

لاحظ الامتعاض في وجوه الزبائن.. فضـــحك بصـــوت كقرع الطبل فعلق أحد الجالسين وقد عرف من يكون:

ــ (من شابه أباه فما ظلم).

ــ وقال آخر: (ينشأ الوليد على ما كان والده)..

فقال مخلوف وهو يدفع الحساب بصوت اجتهد أن يسمعه حتى المارة خارج المطعم مخاطباً صاحب المطعم:

ــ قل لأبناء الزواني أن سيدي الوالي طلب مني أن أشغل مكان والدي المرحوم بوقطاية وأنني سوف أكون أشر منه علـــيهم لهذا السبب فمن لا يترحم على بوقطاية من زبائنك الآن نكلت به هذه اللحظة.

اعترى الذعر والخوف الجميع وقالوا بصوت واحد:

ــ رحم الله بوقطاية.

وزاد أحد الزبائن:

ــ (يا محسنك يا امرأة أبي الأولى).

خرج مخلوف والشيطان يملأ ملابسه وينطق على لســـانه قائلاً:

ــ (فزازنة ما يعرفوش البقري إلا بالكرشة).

رد عليه أحد الجالسين بجانب الباب وكان رجـــلاً نحـــيلاً طاعناً في السن:

ــ هو أنت خليت فيها كرشة يا وجه الكرشة.

داسه مخلوف بحذائه المسروق فصرخ المســـكين مـــن الألم وتأوه..

ترك المطعم واتجه إلى مكتب الحجز.. اشترى تذكرة سفر إلى طرابلس.. أخبره بائع التذاكر بأن موعد المغادرة قد غُيِّر مـــن الساعة الخامسة مساء إلى الساعة الرابعة مساء.. ثم أضاف أي بعد ساعة تقريباً من الآن.

كان ورائه في الطابور رجل وامرأتان من الأهالي جـــاءوا لابتياع تذاكر سفر.. أحدث من مؤخرته فرقعة عظيمة.. ضحك الجميع حتى دمعت عيوهم وسمعوه يقول: كل هذا بسبب تفاعـــل الكرشة والفاصوليا وزيادة في العبـــث بمشـــاعرهم ورداً علـــى تعليقاقم مبيناً لهم أنه لا يهتم لما يقولونه زادهم واحـــدة أخـــرى بصوت مختلف وانصرف إلى حال سبيله.

علق الرجل الواقف خلفه مباشرة وهو يضع يده على أنفه اتقاء للرائحة الكريهة بقوله:

ــ (ما صح رقعتك).

حضر قبيل مغادرة الحافلة ومعه حاجياته وكيس نايلون به قنينة ماء ومجموعة من السندوتشات.

عند باب الحافلة اصطدم بأحد الركاب فقرصه في بطنه.. فتراجع الراكب إلى الخلف وهو يشتم.

مع الفجر وقفت الحافلة في نهاية مشوارها المعتاد ونـــزل جميع الركاب كل يهنئ الآخر بسلامة الوصول يتقدمهم مســـاعد السائق إلا مخلوف لم يكلم أحداً بل سأل عن أقرب حمام وأفرغ فيه جملة ما أكل ليلة البارحة ثم اتخذ طريقه إلى منزلهم عبر منعطفـــات المدينة القديمة وهو يغني بأعلى صوته:

ــ (الناس ما يقولوا الشخص كم غاب).

ــ (الناس بيقولـــوا الشخص كم جاب).

نظر إليه أحد المتسولين كان يكنس أمام أحد المتاجر مـــن أجل حفنة قروش. وقال:

ــ وأنت شن جبت يا طايح السعد.

فأجاب مخلوف جبت المحبة ورفع صوته بأغنية ليبية قديمة:

ــ (بعت المحبة يا ناس من يشريها)

ــ (بعد ما بدأ الكنـــاس يلعب بيها).

هرول المتسول خلفه بعصاة المكنسة ولما لم يلحقه شـــتمه قائلاً:

ــ (حتى أنت يا فرخ الحارة تعلمت التسهويك).

انعطف إلى الشمال حيث سوق الترك ومنـــه إلى ســـوق الذهب حيث باع ما جلبه معه من ذهب وفضة وضـــمه للمبلـــغ الذي معه واتجه إلى ميدان الشهداء حيث (بنك دي روما) ووضع كل ما معه من نقود به بعد أن أخرج نصف المبلغ الذي باع بـــه المترل ليسلمه لأمه..

لم ينس أن يشتري بعض الكباب من مقهـــى (شـــهريار)، حيث يقدم أجود أنواع الكباب وجلس على أقرب طاولـــة وراح يقضم الكباب بأسنانه الأمامية ويقذفه في جوفه بشراهته المعتادة ثم وشرب عليه قنينة من (الكيتي كولا) ماسحاً بيده على بطنه دلالة على الرضا وغادر المقهى إلى مترله.

طرق الباب ففتحت له أمه وضمته إلى صدرها.. تظـــاهر بأنه غير راضٍ عن رحلته وأنه باع المترل بثمن هو أقل من حقـــه لاضطراره للعودة إلى طرابلس.

قالت له أمه:

ــ لقد حذرتك من السفر.. لا يهمني المبلغ الذي بعــت به المترل بقدر ما يهمني أنك عدت سالماً.. لقد خفت عليك كثيراً من أعداء بوقطاية.

أخبرها بأن الناس مازالوا يهابونه حتى بعد موته.. وحكى لها قصة المطعم.. وأضاف إلهم يستحقون من هو أشر من بوقطاية.. ثم تنهد وأضاف .. كم أتمنى أن يحكم طرابلس واحداً مثله.

صرخت أمه في وجهه بعصبية لم يعهدها منها وقالت:

ــ (فال الله ولا فالك).

قال بخبث:

ــ ما هذا الحنان الزائد يا أماه.

قالت:

ــ لا حنان ولا هم يحزنون.. كل واحد يتمنى أن تكــون بلده أحسن البلدان.

رجع إلى نفسه ووبخها وقال: صدقت.. ثم قام وقبل رأسها وعاد إلى مكانه.

بعد خمسة أشهر تقريباً.. قرر الرحيل إلى فزان ليجــرب حظه في التجارة هناك.

قالت له أمه في محاولة منها لثنيه عن السفر:

ـ لن يتعاملوا معك.. فسيرة والدك الدموية بالولاية ما زالت خضراء لم تجف بعد.

★ ★ ★

(24)

ضحك مخلوف حتى استلقى على قفاه وهو يتـذكر مـا جرى بالمطعم.. قائلاً:

لم أر في حياتي أطيب من أهل فزان نقاء وطهارة لا يعرفون الحقد ولا يستطيعون فعله.. تصوري على كل ما فعله بوقطايـة بهم.. قام أحدهم بدعوتي لتناول طعام الغذاء معه.. كما استقبلني كثير ممن كان معي على مقاعد الدراسة بالترحاب وكأنني واحـد منهم.. والله إنني نادم على قولي لك إنهم يستحقون أكثـر مـن بوقطاية..

انهم يستحقون كل خير ولهذا أريد أن أشاركهم في بنـاء بلدنا سبها من جديد.

قالت أمه:

ــ يا بني نحن أعرف الناس بالتجارة لا بالمقاولات.

ــ قال: التجارة أنواع ومنها المقاولات..

لاحظ دمعتين في عيني أمه وهي تودعه وقد أحضرت لـه المبلغ الذي جلبه من سبها ثمناً للمترل.. فأحس بالندم على سرقته

نصف ذلك المبلغ ووضعه بحسابه.. رفض أخذه من أمه وعنـــدما أصرت أخذ منه شيئاً يسيراً قائلاً لن أتركك دون نقود.. ســـوف أعود لك قريباً تاجراً كبيراً يا أماه..

قبلته بحنان بين عينيه وودعته عند الباب..

اشترى بعض ما يحتاجه من أدوات البنـــاء ووضـــعها في إحدى الشاحنات الذاهبة إلى فزان وأوصى السائق عليهـــا خـــيراً قائلاً:

ــ سأغادر اليوم مساء بالحافلة وأوصاه بأن يضـــع لـــه حاجياته عند بائع العطرية بسوق الميدان قرر أن يعيش بين الأهالي وأن يتخذ عمالته منهم لسببين لأن أغلب أمواله التي ورثها عـــن بوقطاية كانت منهوبة أو مسروقة منهم لذا فهو يريد تبييضـــها.. بالإضافة إلى طيبتهم وأنهم غير مؤذيين يحبون الجار ويضحون مـــن أجله وفوق كل ذلك لاحظ أنهم أكثر تحضراً وتديناً من غيرهـــم وان كان الدين لا يهمه كثيراً.

قال الشيخ حامد الذي اكتوى أكثر من غيره بنار بوقطاية للأهالي لن نؤجر له سكناً.. (من يربي الأفعى في كمه).

إن الجرح الذي خلفه والده في قلوب الأهـــالي بتزويـــره للانتخابات ما زال دامياً كما أن آثار السوط السوداني لم تنـــدمل بعد من ظهور الفلاحين.

قرر مخلوف أن يشتري أرضا بمحـــاذاة بيـــوت الأهـــالي اشتراها وبدأ في بناء مسكنه المتواضع المؤلف من حجرتين وحمـــام ومطبخ وسياج كبير.

هداه تفكيره التجاري الذي ورثه عن أمه بـــأن يشـــتري بعض الأراضي (بكانبو الغاتية) وبعد تسجيلها بالسجل العقـــاري جرب حظه في بناء أول مسكن للبيع.. وربحت الصفقة أكثر ممـــا كان متوقعاً..

عاود الكرة وبنى بيتاً آخر وباعه بضعف التكلفة واستمر على هذه الحالة يشتري الأراضي ويبني المساكن ويبيعها.

صار مع مرور الوقت من أصحاب الثروات.. سمـــع بـــه الوالي فاستدعاه.. لقد مضى على قدومه إلى سبها أكثر من سنتين اشتهر خلالها بعقد الصفقات الرابحة.

قال الوالي وقد لاحظ بدهائه أن ملابس مخلــوف نظيفــة وجديدة ولاحظ أنه يتصنع الوجاهة فقرر أن يدخل من خلالها إلى ما يريد:

ـــ لقد صرت يا بني من وجهاء سبها وهذا يتطلب منك القدوم بين الحين والحين إلى الولاية فلا يعقل أن تكــون وجيهــا وبعيداً عن مركز اتخاذ القرار وأضاف.

ـــ لقد كان والدك المرحوم ساعدي الأيمن وهو الوحيــد الذي يدخل عليّ متى شاء ووقت ما شاء.

فرد مخلوف:

ـــ أنا رهن إشارتك يا سيدي.. متى ما طلبتني أســرعت لملاقاتك.

ـــ يا مخلوف.. إنني قررت أن ابني سكناً جديداً بــالقرب من سكني الأول.. وأخبروني أنك أفضل من يقوم بهذه المهمة.

فهم مخلوف أن الوالي يريد أن ينصب عليــه.. تظــاهر بالموافقة.. وقال:

ـــ أبعث لي يا سيدي خريطة المبنى الذي ترغب في تنفيذه وسوف أقوم بدراستها ثم آتي لمناقشتك فيها.

ــ اتفقنا.

ثم استدار ناحية السكرتير وقال له جهز لابننا بعض المال ليبدأ العمل في أسرع وقت.

عرف مخلوف أنه إذا ما أخذ مالاً وقع في المصيدة لذا ناور قائلاً:

ــ اعطني عدة أيام لإنهاء التزاماتي.

فقال الوالي:

ــ كم يكفيك؟

ــ أجاب: عشرة أيام على الأكثر.

ــ لن أزيدك أكثر من أسبوع.. ثم تناول بعض الأوراق رسمت عليها خريطة وناولها إياه قائلاً:

ــ السبت القادم تبدأ في وضع الأساس.

ولكن مخلوف اعترض.. قائلاً:

ــ أنا يا سيدي أحب أن يكون الأحد هو أول أيام الأسبوع لا السبت.

ــ إذن ليكن الأحد القادم بداية العمل.

باع مخلوف كل مقتنياته وممتلكاته في بحر ثلاثة أيام ثم كان مع أول الليل لليوم الرابع جالساً إلى جانب سائق الشاحنة المتجهة إلى طرابلس هارباً من الوالي الذي ما سمع بإنسان زاد عليه قرشـــاً إلا أخذه منه بالقوة أو بالطيبة.

حكى له السائق قصة رجل يعد من أطهر ســـكان ســـبها وأنقاها يتحرى الحلال في كل معاملاته المالية لذا بارك الله لـــه في رزقه.. سمع به الوالي فسال لعابه على أمواله.. استقدمه لبناء بعض المباني الخاصة بالولاية.. نفذ المقاول ما طلب منه على ما يرضي الله ويرضي الوالي ولكن الوالي الشره لأموال الحرام بدل أن يعطيـــه حقه طلب منه التوقيع على بعض الأوراق التي تقول إنه أخذ كل مستحقاته أو أن السوط والموت هما البديل.. فكر المســـكين إذا وقعت على الورقة أفلست وعشت ورجعت لأبنائي.. وإذا لم أوقع أفلست وقتلت.. فأيهما اختار.. وراح يقلب الفكـــرة في عقلـــه بصوت مسموع وهو يقول: (وقع يا عابد وإلا تيتم صغارك)..

أرغم على التوقيع فوقع.. ظل ذلك الرجل التقي الـــورع حبيس مترله أياما مهموما مغموما.. عوضه الله عن ماله المسلوب

بصحة في جسمه ومحبة ألقاها في قلوب خلقه فلا يراه إنسان أو يتحدث معه إلا احبه.

لم يخبر مخلوف السائق بما جرى بينه وبين الوالي إذ كاد أن يكون الضحية الثانية التي سيتحدث الناس عنها ويلوكوا القصص حولها.

تنهد بارتياح بادٍ.. ورجع إلى الخلف وأغمض عينيه محاولاً النوم الذي هرب منه طوال الرحلة.

وفي مساء اليوم الثاني ترجل السائق وهو يتمطى بكسل معلناً وصول الشاحنة طرابلس..

قال مخلوف الآن بإمكاني إخبار السائق بما دار بيني وبين الوالي الشره.. وبإمكاني سبه أيضا

و(يلعن أبو السلطان في غيبته)، ولكنه آثر السلامة فلاذ بالصمت وودع السائق بفتور.

طرق باب مترلهم طرقاته المعتادة فسمع أمه تقول هذا مخلوف أرجو أن يكون بخير..

ضمته إلى صدرها كأنه مازال طفلاً وأجلسته على أريكة كان مخلوف يفضلها على غيرها وبدأت في استجوابه.

ــ هل أجبرت على العودة؟..

ــ هل الكساد التجاري هو ما أرجعك؟..

ــ هل أنت بخير؟..

قالت هذه الأسئلة دفعة واحدة دون أن تنتظر جوابه وبعد فترة صمت قال:

ــ الحمد لله أنا بخير وسبب عودتي إنني اشــتقت إليــك كثيراً.. يبدوا أنني مازلت لا أستطيع أن اســتغنى عنــك لفتــرة طويلة..

ــ هل زوجك بخير؟

كان يتحاشى دائما أن يقول أبي وإن كان يعلم في قــرارة نفسه أنه والده.

ــ أجابت.. إنه بخير وإن بدأ عليه الكبر والإرهاق بسبب ساعات العمل الطويلة.

ــ قال مخلوف إنه يرهق نفسه أكثر مما يجب مع تقدمه في العمر.. وأردف قائلاً:

ــ (عمر ما يزيد.. ينقص).

ــ نعم يا بني (عمر ما يزيد.. ينقص)..

استعد لتحمل المسؤولية معه ومعاونته في الدكان..

إنه اغتم كثيراً لسفرك ولا أكتمك سراً إذا قلت لك أنني وجدته منذ أيام يبكي وعندما سألته عن سبب بكائه أجابني لقـــد كان مخلوف ساعدي وقرة عيني واشعر إنني لم أقم نحوه بواجـــب الأبوة.. ثم صاح أين أنت يا بني.. وذهـــب إلى ســـريره دون أن يتعشى..

سمعا المفتاح يدور في القفل فعلما أن الأب قد عاد.. ضمه كما لم يضمه من قبل ولأول مرة سمع نشيجه وهو يبكي ويقول:

ــ الحمد لله على سلامتك يا بني.. لن تسافر بعد اليـــوم أبدا.. شاركني العمل في الدكان فهو وإن كان صـــغيراً يســـعني ويسعك.. (الضيق في القلوب).

وجد مخلوف نفسه محاصراً بعواطف غريبة عليه.. ووعـــد أبوه خيراً.

ومع إشراقة الشمس خرج مصحوباً بحقيبته المملوءة مالاً إلى البنك وأودعها.. ثم عرّج على دكان العطرية كان أبوه منشغلاً مع أحد زبائنه من الجنوب.. طلب منه معاونته فلم يتأخر.. وعـــدّ

أبوه ذلك إيذانا ببداية العمل معه.. لما انصرف الزبون طلب الأب مشروباً بارداً وبدأ حديثه:

ــ هل ترغب العمـــل علـــى مرتـــب أو أنـــك تريـــد المشاركة؟.. مع العلم بأن هذا المتجر سيؤول إليك يوما ما فليس عندي وريثاً غيركما أنت وأمك.

قال مخلوف:

ــ بعد عمر طويل يا أبي..

ــ كم أحب أن أسمعك تناديني بهذه الكلمة.

ــ فلنتشارك يا أبي.. إن عندي مبلغاً جلبته من ســـبها.. لنشتر المتجر الملاصق ونوسع التجارة.

ــ افعل ما شئت يا بني فأنت الباقي على كل حال.

وفي المساء عادا مسرورين كأب وابنه يظللهما الحب..

زغردت "لافيه" لرؤيتهما على هذا الوفاق وقامت تطلق البخور وتقرأ التعاويذ خوفاً عليهما من الحسد وهي تقول:

ــ (العين الودودة أنكى من العين الحسودة).

كان أحد جلساء دكان العطرية في المساء مدرســـاً مـــن المدينة القديمة ذو جذور تركية شجع مخلوف على مواصلة دراسته

بقوله إنه يقيم دروساً مجانية بمترله بزنقة المجروح المتفرعة يساراً بعد كوشة الصفار..

طلب منه دفتراً وقلماً فقط..

بدأ يتردد على الدروس.. لم تكن المجموعة كبيرة.. حضر درس النحو والأدب.. أما درس العقيدة فكان لا يحضره لأنـــه لا يريد أن يشوش على عقله ويكفيه ما عنده كما كان يقول دائماً..

بعد سنة واحدة دخل إلى المدرسة المسائية للحصول على الشهادة الإعدادية واجتازها متفوقاً..

كانت هذه فاتحة خير له شجعته على مواصـــلة دراســـته الثانوية..

بدأ أبوه يتغيب عن المتجر لكبر سنه ولضعف ووهن طرأ عليه في أيامه الأخيرة.

★ ★ ★

(25)

لاحظ الأهالي أن تغيراً طرأ على سلوك أبنائهم بعد اختلاطهم بالقادمين الجدد.. كان من الموبقات السبع أن ترى صبياً أو شاباً يافعاً يتسكع بين المنازل ليعاكس البنات أو يبتاع سيجارة ليدخنها من متاجر الغرباء وقد اشتكى الآباء كثيراً من مساعدة التجار لأبنائهم على التدخين لأنهم كانوا لا يتورعون عن فتح علب السجائر وبيعها لأي طالب تدخين ولو كان يريد سيجارة واحدة.. فكل ما يهم التجار هو الكسب المادي في حين أن الوجهاء والمتدينين من الأهالي يرون أن مجرد الأكل في السوق وأمام الناس يعد نقصاً في الدين وهدماً للأخلاق علاوة على أنه يذهب الوجاهة ويزري بصاحبه.

ولهذا عندما طلبت مديرية التعليم إنشاء مجالس للآباء بالمدارس حضر جمع غفير بالمدرسة الوحيدة بحي الأهالي مكونين أول مجلس لهم..

صحيح أن الدولة هي من اقترحت هذه المجالس بالمدارس لمساعدة مدير المدرسة على إدارة مدرسته ولتحقيق التواصل المثمر

بين المجتمع والمدرسة من اجل خلق جيل رائد في منـــاحي العلـــم المختلفة.. إلا أنه لجهل كثير من الآباء بما يراد من هذه المجـــالس حدث شرخ في مجال التعاون المثمر لرفع مستوى التحصيل العلمي والسلوكي بين الطلبة.

ركز الآباء على الجانب السلوكي فقط.. بل وتدخل كثير منهم في مناهج الدراسة خاصة في مادة التربية الإسلامية مطـــالبين بالتركيز على المذهب المالكي من الصفوف الأولى للدراســـة مـــع الطلب من المدرسين حث الطلبة على التبليغ الفوري عن المدخنين وأصحاب السلوك المنحرف من الطلبة والأساتذة.

بدل أن يكون اجتماع مجلس الآبـــاء بطلـــب مـــن أدار المدرسة وجد مدير المدرسة زعماء هذا المجلس من أولياء الأمـــور يحضرون مساء كل يوم بعد رجوعهم من مزارعهم إلى المدرســـة لسماع الأخبار فصارت المدرسة مـــع الأيـــام ملتقـــىً للســـمر والأحاديث الجانبية.. وفقد مجلس الآباء قيمته الحقيقيـــة.. أمـــا المدارس الأخرى بالولاية فلعدم تجانس السكان كانت مجالسهم لا قيمة لها.

إذ منذ الاجتماع الأول صار كل أب يلقـي بالمسـؤولية واللائمة على المدرس الذي رسب ابنه طاعناً في مؤهله إن كـان أجنبياً وطاعناً في كفاءته إن كان ليبياً.. فكثر النزاع ودبت الفرقة بينهم وانفضت المجالس ولم تدع للاجتماع إلا مرة واحدة في السنة وبحضور نفر قليل ليتم اختيار مجالس آباء جديدة.

★ ★ ★

(26)

كان حي الأهالي كما تقول تقارير رجال المباحث بــؤرة فساد ومعارضة لحكم الشاوش لأهم اكتووا بنــار الــوالي ولأن الحكومة لم تحسن من وضعهم المعيشي.. فلا سكن ولا طــرق ولا عناية بالدوائر الحكومية.. لذا كثر تردد الطلبة وزعاماتهم على هذا الحي الذي غدا مكاناً خصباً لكتابة المناشير واللافتات.. وكانــت منازل آل الشيخ أكثر منازل الأهالي استقبالاً للمعارضــين مــن الطلبة لأن ابنهم الأكبر كان أحد زعماء الطلبة.

قال مدير المباحث مخاطباً رجاله الــذين جمعهــم بصــالة الاجتماعات على مختلف رتبهم:

ـــ أين اختفى زعماء الطلبة منذ ثلاثة أيام؟

ـــ هل انفتحت الأرض وابتلعتهم؟

ـــ لابد أهم يخططون لعمل سيفاجئوننا به..

ـــ إن مولاي الشاوش وحكومته الرشيدة في طرابلس قد أبرقوا منذ لحظات لإخبارنا بأن الدولة كلها في حالة هيــج وقــد

طلب مني الوالي شخصياً مداهمة المنازل حتى دون أخذ إذن مـــن النيابة لأن الأمر قارب أن يفلت من أيدينا.

لذا انتشروا وابحثوا عن الزعامات الطلابية.. ثم نظـــر إلى سكرتيره وقال:

ــ أعط كل واحد ورقة بأسمائهم.. ثم توقف عن الكـــلام وبلهجة آمرة قال:

انتهى الاجتماع هيا انصرفوا..

مع إشراقة صباح اليوم التالي كان التحـــرك مـــن كـــل المدارس حتى الابتدائية أخرج طلابها بفضل وجود بعض الأساتذة الثوريين ووصول بعض زعماء الطلبة لإخراجهم بالقوة.

اتجهت جموع المظاهرة صوب اقعيد.. دمروا في طـــريقهم بار (ببينو) و(المقهى التجاري).. لقي بعض المدمنين الفرصة سانحة فشربوا حتى فقدوا وعيهم.. ثقلت رؤوسهم وانتفخت كروشهم.. أما الطلبة فهتفوا ضد الشاوش ومريديه وضد الحكومـــة وضـــد القواعد الأجنبية.

هنا تدخل البوليس بالهراوات والقنابل المسيلة للـــدموع وخراطيم مياه سيارات المطافئ.

ونتيجة لهذا العنف غير المبرر أصيب بعض الطلبة بعاهات مستديمة ظلت ترافقهم طوال سني عمرهم.. ونتيجة لضربهم على رؤوسهم أغمي على كثير منهم حتى فقد بعضهم عقله.

وانفضت المظاهرة وسجن كثير من الطلبة.. وتم نقل بعض المصابين إلى المستشفى وبعضهم ظل ينزف ويئن حتى فقد الوعي.

كان كيوم من أيام الآخرة كما يقولون.. أكفهر وجه نهار الولاية وخيم عليها ليل ثقيل.. بكت فيه الأمهات ووصف الآباء التعاطي مع المظاهرة من قبل البوليس بأنه كان يفوق ما تعرضوا له من ظلم واضطهاد من قبل الطليان أيام الاستعمار.. وعلق أحـــد أساتذة اللغة العربية بقوله:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة

على الحر من وقع الحسام المهند

فقال الحاج مختار:

ــ والله أنا لم افهم ما قلت ولكنني أقول الحق ليس فيهم.. الحق فيمن أصدر لهم الأوامر بكـــبح المظـــاهرة بهـــذه الطريقـــة الشنيعة.. فعلق أحد الحاضرين من الطلبة: لعنة الله على من أصدر الأوامر وعلى من قام بتنفيذها.

كانت تلك الليلة من أحلك ليالي الولاية فلم يســـبق أن عوملت مظاهرة سلمية أو غير سلمية بمثل هذه القسوة.

★ ★ ★

(27)

بعد التشاور مع الحكومة في العاصـــمة قـــررت مديريـــة التعليم إيقاف الدراسة في الولاية كلها حفاظاً على أمن الدولة حتى إشعار آخر.

ضحك مدير البوليس وهو يخرج زجاجة الويسكي مـــن جيبه.. كان قد سرقها أثناء مداهمة الطلبة للبار.. مخاطباً زملائه من الضباط وهو يفتحها ويستنشقها كتيس الماعز.. أرجو أن تكـــون الحكومة ومولانا الشاوش راضيين عنا.

فعلق أحد الضباط.. وهل تركنا ما يستوجب توبيخنـــا.. لقد ضربنا بالهراوات بلا شفقة واستخدمنا الغاز المسيل للـــدموع حتى اختنق كثير من الطلبة.. وبصوت خافت حـــتى الرصـــاص أطلقناه على صدورهم بلا رحمة.

طلب مدير البوليس من العريف المكلف بالمقصف ثلاثـــة كؤوس ملأها خمراً ورفع كأسه إلى أعلى وفعل الضابطان مثله وهم يقولون في صحة مولانا الشاوش والدراويش الثلاثة.

في صباح اليوم الثالث للمظاهرة جاءت المراســيم مــن حضرة الشاوش بالترقيات لكبار الضباط لما أبلوه من بلاء حســن في إخماد المظاهرة.

قال أحد رجالات البوليس.. لقد نفذنا نحن العمل وقبضوا هم الثمن.

★ ★ ★

(28)

تطلب الأمر لسجن الطلبة سبع حجرات.. وضع كل خمسة طلبة في حجرة واحدة.. أحضرت لهم الأغطية والوسائد من القسم الداخلي.. سمح لهم دون غيرهم بجلب الطعام من الخارج.. من أهلهم.. كما سمح لهم بالسمر والالتقاء ببعضهم في إحدى حجرات السجن الواسعة ما بعد المغرب وحتى الحادية عشرة ليلاً.

برر مدير السجن ذلك بأن الضغط على الطلبة قد يسبب الانفجار فيلتحم معهم المساجين وتكون كارثة..

كانت فئات الطلبة عامة.. تنقسم إلى فئتين كبيرتين متصارعتين.. قوميون.. قبلتهم مصر وزعيمهم عبد الناصر... وشيوعيون قبلتهم موسكو ورأس الأمر عندهم لينين.. أما الإسلاميون والبعثيون فكانت نسبتهم لا تذكر وإن أحدث الإسلاميون ضجيجاً عالياً في لقاءاتهم خاصة عندما يحتدم الحوار بينهم وبين الشيوعيين ويكون الأمر متعلقاً بالدين.. ورغم الفارق في الرؤية والفكر إلا أن الراصد لهاتين الفئتين يلاحظ أن خلافاتهما

لا تصل إلى التصادم.. ولكن كما يقال دائماً قلوبهم لم تكن علـــى وئام.

افتتح حماد عبد السلام زعيم الشيوعيين الجلســة الأولى بقوله.. إن في تدمير (البار والمقهى التجاري) والعبث بمقتنياتهمــا خسارة كبيرة للوطن وأنه قد لاحظ أن المتدينين قد بالغوا في تحطيم البار والمقهى.

ــ فرد عليه مسعود الفلو.. أصمت.. أنت آخــر مــن يتكلم عن السلوكيات..لقد رأيتك وأنت تحتسي الخمر من زجاجة صفراء لا أعرف لها اسماً.. وأنت تقول حــرام علــيكم العبــث بأدوات وأواني البار أيها الأغبياء.. فمن تقصد بالأغبياء.

ــ تدخل أحد القوميين.. وهم عادة من يدير الجلسات.. وكان مشكوكاً في التزامه الديني.. قائلاً:

ــ الحديث بهذه الطريقة يجرنا للانقسام وهذا ما تريــده السلطة.. فلنقفل الحديث عن كل ما جرى في المظاهرة.

ــ قال مسعود الفلو.. جسدك مــع القــوميين وقلبــك معهم.. أنت شيوعي مندس بين القوميين الشرفاء.

ــ فرد عليه.. لماذا لا تقل قومي متفتح..

ـــ قال مسعود: لن أرد عليك كي لا يشمت فينا الأعداء فنحن وأنتم في خندق واحد.

ـــ قال أحد الشيوعيين وكان متكئاً على قفاه الأمـــر لا يصل إلى درجة العداء.. فالاختلاف في الـــرأي لا يفســـد للـــود قضية.. ولكنكم ضيقي الأفق.. تسكروا من زبيبة..

ـــ وهنا اشتط الإسلاميون.. نسكر من زبيبة.. لعنـــة الله على حاملها وبائعها وشاربها..

ـــ فرد الشيوعي.. لا أقصد أنتم تسكرون.. ولكنه (مثل) جئت به لتعزيز فكرتي وردكم هذا يؤيد ضيق أفقكم.

قال مسعود الفلو مغيراً الحديث:

ـــ ما تقول في القرآن؟

ـــ قال حماد أنا لا أعترف بالأديان جملة.. فالدين أفيـــون الشعوب.. يخدرها عن طريق الوعود الكاذبة بالجنـــات في اليـــوم الآخر ويفرض عليها قبول الظلم فيؤخر قيام الثورات إلى أجل غير مسمى وهذا يجعل مدة الظلم تطول.. فلو علم الإنسان أن لا حياة له غير هذه الحياة لرفض أن يعيش ذلـــيلاً ولطلـــب حقـــه مـــن مغتصبيه.. ألا ترى معي أن فكرة وجود حياتين أمر سخيف..

ــ فرد أحد القوميين إنه يسألك عن القرآن فتهرب إلى الأديان.. التزم بالإجابة المحددة للسؤال..

ــ قال حماد.. بدأنا في التعصب.. ولكن إننا لها.. هب أن القرآن من عند الله..

ــ انتفض مسعود قائلاً.. لا تقل (هب) إن القرآن فعلاً من عند الله.

ــ لم يعلق حماد.. وأضاف إن مصدر القرآن قبل أن يترل من جبريل كان إلهياً وبعدما تناوله جبريل صار في وعاء ملائكي والملائكة ليست آلهة فلابد أن يحدث عليه تغيير ولو بسيط لأن كلام الله أقوى بكثير من قدرة المخلوقات على حمله ولهذا خفف قليلاً حتى يستطيع بشر أن يتحمله وبتروله على محمد بن عبد الله صار بشرياً وفقد كثيراً من عظمته وقدسيته ولهذا يلاحظ القارئ كثرة النسيان فيه والنسخ.. لذا فإننا نعده تراثاً إنسانياً راقياً ولا نزيد على ذلك.

ــ قال أحد الإسلاميين ممن سمي بفيلسوف المجموعة.. الأمر لا يناقش بهذه الطريقة..

أولاً: هل تؤمن بأن القرآن من عند الله.. إذا آمنت بـــأن القرآن من الله حلت المعضلة لأنك تكون تؤمن بكل ما جاء فيـــه فالله تعالى يقول:

ـــ (إنا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون)..

فهو سيحفظه في إنائه الملائكي والبشري حتى يصـــل إلى الناس.

وإذا كنت لا تؤمن بالله فعلينا مناقشة هذا الأمر أولاً..

هنا سمع وقع خطى ثقيلة تأمر كل واحد منهم بالـــذهاب إلى حجرته للنوم.. والصباح رباح..

ـــ قال حماد عبد السلام.. للحديث بقية..

لم يرد عليه أحد.

تجمع الطلبة للسمر لليلة الثانية.. وبدأ الحديث مســـعود الفلو كمنظم للجلسة.. كان السؤال:

ـــ هل تؤمنون بالله أم لا..

ـــ فقال الشيوعيون "لا" ولنا أسبابنا.

وبدأ الحديث...

إن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعرف أنه صـائر إلى زوال بقهر الموت.. ولذلك راح يبحث عن حياة أفضل فيما بعدها فاختلق اليوم الآخر والعقاب والثواب.. وكان لابد مـن مـنظم لتلك الحياة بطريقة.. (من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمـل مثقال ذرة شراً يره)..

وحيث أن الحاجة أم الاختراع.. صنع الإنسـان إلهـه.. وليس عجيباً أن يصنع الإنسان مقدساته.. ألم يسبق أن جعل مـن خرقة علماً وراح يقدم له فروض الطاعة والولاء ويأمر غيره بفعل ذلك.. ومن يمزق تلك الخرقة قد تعدى على راية الدولة ويجـب معاقبته بعقوبة تصل إلى الخيانة العظمى من أجل خرقة قد يقتـل إنسان.. وهكذا صنع الإنسان الله كما صنع الملائكـة والجـن.. والقائمة تطول من تلك المخلوقات التي تعيش في الخفاء والتي من ينكرها أنكر وجود الله وعقابه معروف وتعامل الإنسـان بـنفس الأسلوب مع الرسل والأولياء الذين في كثير من الأحيـان كـان يخافهم أكثر من خوفه من الله.

ولهذا كانت أول القصص التي ابتكرها قصة خلق آدم من تراب وخلق حواء من آدم وبسبب عصيانهما طردا من الجنة وإن

لم يدخلا النار بسبب عصيانهما لأن الراوي لم يخلق النـــار بعـــد ثم سار هذا العقاب والتواب سارياً في ذريتهما من يعصى الله يحرم من الجنة ومن يطعه لا يحرم منها وإن دخل على الخط عقاب اسمه النار لم يكن موجوداً أيام آدم.

حدث تململ غير عادي من قبل الإسلاميين وقال أحدهم لولا أننا في السجن لقمت بتربيتك لأنك ناقص التربية..

وهنا تدخل أحد القوميين قائلاً:

ــ رد عليه الرأي بالرأي والحجة بالحجة.

كان يجب أن ترد عليه أنت أيضـــاً أم أنـــك اســـترحت لأفكاره الخبيثة واستطرد..

ــ أقول لكم.. هل هناك ثمة مركب يسير في البحر محدد الاتجاه دون ربان على ظهره؟.. هل الشمس التي تشرق كل يوم وتغرب تفعل ذلك من تلقاء نفسها؟..

ــ هل حدث أن تداخل الليل بالنهار؟

أم ما لكم كيف تحكمون.. ووقف متفاعلاً مع أفكاره..

إلا أن البوليس المكلف بالعمل الليلي طرق بـــاب البـــهو طالباً من الجميع الذهاب إلى حجراهم.

استمر حالهم هكذا كل يوم جدل ونقاش.. حتى أن أحد الطلبة الذين لا يعرف لهم اتجاه قال.. صدق من قال .. (إن العلم في السجون).

ــ فرد عليه أحد الإسلاميين.. إن علمهم سينضـــب إذا طالت فترة السجن لأن من لقنهم هذه الأفكار الهدامة ليس سجيناً معهم وكذلك الحال مع القوميين أما نحن ففكرنا معنا.. إنه القرآن الكريم.

قال أحد الشيوعيين:

ــ ما هذا التعريض وماذا ترمي من وراء كلامك؟

ــ فقال من يطلقون عليه فيلسوف الإســـلاميين لـــنكن صرحاء.. أنتم تستقون معلوماتكم من مدرس اللغة العربية المصري المقيم في منزل شعبي بالقرضة حتى يتمكن من مخالطة أكبر عـــدد ممكن من المواطنين ليبث فيهم أفكاره الناصرية..

أما هؤلاء الشيوعيون فيتغدون على بعض الكتب الـــتي أحضرها لهم أستاذ اللغة الإنجليزية السوداني.. وليس ســـراً أنـــه ينتمي إلى الحزب الشيوعي السوداني.. فصور هاشم العطا وعبـــد الخالق محجوب وأحمد الشفيع الشيخ، تملأ جدران حجرته القذرة..

ـــ فصاح الشيوعيون في آن واحد.. أصمت أيها الحقــير ما هذه التهم؟

أتصل بك الدناءة أن تسجن أساتذتك.. ألا يكفي أنــك سجين رأي.

ـــ أجاب: أنا لا أستطيع أن أسجن نملة وأنت خير مــن يعرف ذلك.

ولكن أقوالك هذه إذا سمعها أي بوليس توصل المســكين إلى السجن ثم إلى طرده دون أخذ مستحقاته.

ـــ تدخل حماد عبد السلام قائلاً: فلنغير الموضوع.. واتجه مخاطباً مسعود الفلو إذا كنت لا تستطيع أن تضبط الجلسة فتخلى عنها لغيرك.. كان الفلو قد أعد برنامج النقــاش قبــل أن تبــدأ الجلسة فقال:

ـــ نحن كلنا نجمع على أن فلسطين هي أرض عربيــة ولا بد أن تعود الأرض إلى أصحابها.

تنحنح معتوق وهو من الفئة التي لا تنتمي لحزب ولا إلى طائفة قائلاً:

ــ خلونا في (همّنا).. فما تعانيه ليبيا من القهر ومن ظلـــم ذوي القربى أشد وأنكى.. وأنشد:

"وسبها تعاني من القهر

أكثر

تشيخ وتحمل عصاها

ولكنها تتعثر

تمر بها حالكات الليالي

تعاني العهر

فرحماك يا سيدي

إن واسطة العقد سبها تكسر

فمن ذا يصيح بوجه الخليفة

الله اكبر

ليهجم ويتبعه الحانقون

فزازنة أرضنا هذه

من قرون

نموت عليها ليحيا الوطن"

فنهره أحد القوميين بقوله: "إن فلسطين هي قضية الأمة العربية".

ــ فقال أحد الإسلاميين محتجاً.. عربية!!.. من أين أتيت بهذا الإجماع.. هذه أفكار عبد الناصر.. فلسطين ليست عربية فلسطين إسلامية وقد فتحها المسلمون لا العرب.. العرب قبل الإسلام أمة تبول على نفسها وتتناحر فيما بينها ولولا الإسلام ما كان لها شأن وقد شارك في فتح فلسطين العرب وغير العرب.. وللتذكير فإن صلاح الدين ليس عربياً.. لذا فإرجاعها لابد أن يكون إسلامياً لا عربياً..

ــ وهنا تدخل حماد عبد السلام قائلاً ألم أقل لكم إنكم ضيقي الأفق في مناقشاتكم.. فلسطين بحكم تاريخها الديني عالمية.

إن أرض فلسطين وما حولها منطقة غير مستقرة منذ تاريخها القديم لارتباطها بالأديان الثلاثة التي ظلت تتصارع على أرضها على مر السنين..

ففي البداية كان بها الكنعانيون الذين هُزموا من قبل اليهود القادمين بقيادة "داود" وظلت السيادة في هذه المنطقة لأجيال كثيرة وأزمنة متعاقبة لهم.. ثم انتقل حكمها للمسيحيين

بعد مجيء "عيسى" إذ آمن به بعض أهلها وظلـــت البقيـــة علـــى اليهودية ثم ما لبث أن تعاقب عليها المسيحيون خاصة أن بها أهم مقدساتهم وكنائسهم..

أما المسلمون فبعد أن أسري برسولهم إلى بيت المقـــدس فضلاً عن كونها أول القبلتين.. وبعد فتحها في عهد عمـــر بـــن الخطاب انتقل حكمهم إليها.. إلى أن عاد إليها المسيحيون مـــرة ثانية وظلوا بها زماناً ولم يهدأ المسلمون حتى عادوا إليها مع صلاح الدين الأيوبي مرة أخرى إلا أن المسيحيين ظلت عينهم عليها فكان لهم النصر والعودة.. وأخيراً وليس آخر استطاع اليهود العودة من جديد وإن كان تحت راية الصهيونية العالمية الـــتي قتلـــت مـــن المسلمين والمسيحيين الآلاف.. وأقامت دولتـــها علـــى جمـــاجم البسطاء.. فها أنت وغيرك ترى أن الأديان الثلاثة تتصارع فـــوق هذه البقعة من الأرض كل يدعيها وصدق المعري حيث يقول:

(كل يعزز دينه يا ليث شعري ما الصحيح).

ـــ فانتفض ثلاثة من الإسلاميين في وجهه وهموا به لولا أن تدخل بعض القوميين لإصلاح ذات البين.

وسأله مسعود الفلو:

ــ هل أنت عربي؟

من لا يشغله همّ الأمة فليس منها..

وتعالت الأصوات مرة أخرى فتدخل بعض البوليس لتفريقهم وإدخال كل فريق إلى حجرته ومن ذلك اليوم منع عنهم السمر.. حتى كان يوم خروجهم حين مد بعض الشيوعيين أيديهم للإسلاميين لتوديعهم فردوا عليهم السلام بأفواههم.. أما الأيادي فقال مفتيهم أن أيديهم الطاهرة لا تلامس الأيادي النجسة.. مستنداً على قوله تعالى: (إنما المشركون نجس).

★ ★ ★

(29)

سمعت ثلاث صرخات بصوت عالٍ تدل على مكلوم فقد عزيزاً.. ميزت الجارات صوت "لافية" فهرعن لنجـدها بسـرعة البرق.. لم يكن لنجدها من سبيل لقد سبق السيف العدل.. كانت دموعها تنهمر من عينيها وأمامها جثة زوجها ممدة بلا حراك وهي تقول:

لقد مات الغريب.

وصل الخبر إلى مخلوف في الدكان فجرى إلى بيتهم وقلبه يخفق بسرعة غير منتظمة حتى ليكاد ينفطر من الحزن.

لقد كان أبوه لا يستطيع الحراك منذ عشرة أيام كمـا أن الطعام لم يدخل معدته منذ ما يزيد على الشهر تقريباً إلا من بعض العصائر والشوربات المهروسة.

بكي بمرارة وضم أمه بحرقة وهو ينشج كطفل صغير.

ما العجب في ذلك فكلنا صغار أمام الموت.

مع المساء تمت مراسم الدفن وشـيع الفقيـد إلى مثـواه الأخير.. تسلم مخلوف جثة أبيه ووضعها بنفسه في القبر.. وفجأة

طلع عليه وجه تلك العجوز الشمطاء التي التقاها بالمقبرة بمدينـــة سبها.. تناولت منه الجثة بسرعة خاطفة وفتحت فاها الذي صـــار كفتحة القبر اتساعاً ووضعته فيها فسقط في جوفها محدثاً صـــوتاً مسموعاً وهي تبتسم.

ظل مخلوف مشدوهاً مشدوداً إلى القبر تسمرت قـــدماه وبدا له أهما غاصا في أرضية القبر.

خاطبه من تحلق حول القبر بقولهم: هيا أخرج.. دعنا نهيل التراب على المتوفى.. لم يكن يســـمع أصـــواقم الـــتي صـــارت كالصريخ.. إلا أنه انتبه على يد تمسك كتفه وتحاول ســـحبه إلى أعلى.. عندها فقط عاد إلى وعيه وتحرر من أسر تلـــك العجـــوز الشريرة.. قفز خارج القبر وبدأ الحاضرون يهيلون التراب..

اختلط عليه الأمر وهو في طريقه إلى مترله.. هل ما شاهده اليوم ضرب من الخيال بسبب التعب والإعياء فهو لم يـــنم ليلتـــه السابقة.. ثم هل ما شاهده بالقبو بسبها كان حقيقة أم خيـــالاً.. وبينما هو شارد الذهن لا يستطيع أن يسيطر على خطاه اقتـــرب منه رجل مسن ونهره بقوله:

ــ أنت لست أول من فقد عزيزاً.. اصبر وتمالك نفسك يا رجل.

لكن صورة العجوز ظلت عالقة بذاكرته وكأنه يراها ماثلة أمامه.

سأل نفسه لماذا ابتسمت وهي تلقف أباه كلقمة صـــغيرة في جوفها..

ودون أن يدري غاب عن وعيه وسمع صـــوت العجـــوز تقول ستئول إلى نفس المصير في يوم ما وأعلم أن من يفارق رحم أمه يبكي لأنه كان في مأمن وعيشه يأتيه رغـــداً دون تعـــب ولا نصب وإن كان خارجاً من ظلام إلى نور.. أما من يقبر فبرغم أنه ذاهب من نور إلى ظلام فهو عائد إلى أمه التي جبل منها ومـــن لا يحب أن يعود إلى أمه ولو بعد طول غياب.

★ ★ ★

(30)

رجع مخلوف من المقبرة محطماً مهـــيض الجنـــاح دامـــع العينين..

أجّر بعض الكراسي ووضعها أمام منزلهم وتوالى المعـــزون حتى ضاق بهم واضطر أن يحضر متراسين وبعض الوسائد.

وقل العدد إلى أقل من النصف في اليوم الثاني.. أما اليوم الثالث فلم يأته فيه أحد.. ذلك لأن أهل حارته أصحاب تجـــارة وغير مستعدين لقفلها لمدة ثلاثة أيام فلهم زبائن وعملاء.

عاد مخلوف إلى الدكان.. وأحس برائحة والده تملأ عليـــه المتجر.. وقف لحظات يستنشق الهواء بملء رئتيه وأحس بمرارة في حلقه ودمعتين تنحدران على خديه..

أخرج كرسياً كان يجلس عليه والده ووضعه في المكـــان الذي أعتاد والده أن يشغله وجلس عليه.. في إشارة منه إلى أنـــه سائر على نهج والده.

بدأت التعازي من التجار والزبائن الذين عرفوه ولم يـــأتوا لتعزيته بالحارة مشفوعة ببعض عبارات المجاملة..

ومع المساء جاءه رسول من كبار تجار حارتـــه يبلغـــه أن كبيرهم يعزيه في فقيده.. الذي هو فقيد الجميع.. ولأنه لا يستطيع أن يأتيه لكبر سنه لذا فهو يطلب منه الحضور مع والدته لتنـــاول وجبة العشاء ببيته...

قبل الدعوة وقفل محله بعد غروب الشمس مباشـــرة.. ثم هرع إلى أمه يزف لها الخبر.

قالت إنه شرف كبير يا بني قلما حظي به أحد غيرنا مـــن سكان حارتنا.

لبس بدلته السوداء.. التي اشتراها بعد وفـــاة والـــده ولم يلبسها إلا أيام العزاء.. كما ارتدت أمه بدلتها الســـوداء أيضـــا وخرجا من المترل.

طرق مخلوف جرس الفيلا.. جاءهم صوت نباح كلـــب قبل أن يفتح الباب ويطل عليهما وجه ارتسمت عليه علامـــات القسوة فحفرت فيه أخاديد.

سأل بصلافة:

ــ ماذا تريدان.

ــ رد مخلوف: نحن مدعوان من قبل كبيرنا.

لم يتحرك من مكانه بل أفسح لهما فرجة صغيرة لا تسمح إلا بمرور شخص واحد.

كان كبير التجار جالساً مع زوجته وابنته في انتظارهما.

لأول مرة في حياته يرى مخلوف كبير التجار.. وبعد تدقيق في ملامح وجهه اكتشف أن هناك شبهاً كبيراً بينه وبين والده.

انتبه على صوت أحد الخدم يقــدم لــه بعــض قطــع الشوكولاته..

ــ قال كبير التجار: لم ادع أحدا آخر لأنني أريدها جلسة عائلية.

ــ فرد مخلوف هذا شرف كبير لنا يا سيدي.

ابتسم كبير التجار وقال:

ــ إننا أسرة واحدة ويكفي أن تناديني يا عمي.. وأضاف: كان يجب أن يتم هذا اللقاء منذ زمن وبحضور والدك.. ولكنــها إرادة الله.

دمعت عيناه وهو يطلب من مخلوف أن يقف ليعانقه وسط ذهول الجميع.

ــ سأله مخلوف وهل تعرف والدي؟

ـــ لم يجبه.

وفي هذه الأثناء دخل الخادم يدعوهم لتناول طعام العشاء بغرفة الطعام.

حاولت زوجته أن تعينه على الوقوف.. ولكنه طلب من مخلوف أن يساعده.. لاحظ مخلوف انه بدين ذو كـــرش ليســـت بالكبيرة.. وعينان عسليتان كعيني والده.. تذكر والـــده ولكنـــه صرف الفكرة عنه ناهراً نفسه يجب أن لا يبدل دقيقة فرح بساعة حزن.

بعد تناول العشاء رجعوا إلى غرفة الجلوس لتناول الشاي والمرطبات والفواكه.

أخرج كبير التجار صورة شمسية قديمة من جيب معطفـــه وناولها مخلوف طالباً منه أن يمعن النظر إليها.. وبعد دقائق سأله:

ـــ هل تعرفت على أحدهما؟

ـــ إنها صورة لأخوين يجب أن يكونا توأمين لأنهما يشبها بعضهما البعض إلى درجة التطـــابق إلا في ملابســـهما حيـــث أن ملابس أحدهما تدل على رفاهية صاحبها.. أما الآخر فملابسه لا تدل على فقر ولا ثراء.

رفع بصره ليتحقق أن أحدهما كبير التجار وقبل أن يرجع بصره إلى الصورة سأله كبير التجار:

ــ هل بينهما تشابه؟

ــ وهل فيهما من يشبهني أو يشبه أباك؟

ــ نعم يا سيدي أحدهما بالتأكيد أنت وأظن انك صاحب الملابس الراقية.

أعاد كبير التجار السؤال:

ــ هل فيهما من يشبه أباك؟

ارجع بصره إلى الصورة وقال دون أن يرفع رأسه عنها.. أظن أن أحدهما يشبهه.

طلب منه أن يعطي الصورة لامه عسى أن تجيـــب نيابـــة عنه.. قالت دون تردد:

ــ الصورة لتوأمين أحدهما أنت.

ــ سأل.. والآخر من يشبه؟

ــ إنه يشبه زوجي عليه رحمة الله.

ضحك كبير التجار وقال أحسنت الإجابة فهذه الصورة أخذت لي ولزوجك عندما كان عمره سبع سنين.. وكان عمري يومها خمس سنين.

ـــ قالت الزوجة: ولكنه يشبهك إلى درجة التطابق.

ـــ فابتسم وهو يقول: طبعاً يشبهني.. أليس شقيقي؟!

فغر مخلوف فاه.. وصعقت أمه بالخبر أما الباقون فلم يظهر عليهما أنهما فوجئا بالخبر.

ـــ قال كبير التجار قبل أن أدعوكما أخـــبرت زوجـــتي وابنتي بالخبر حتى لا يصدما به مثلكما.

وأردف قائلاً:

ـــ سوف تطلعكما زوجتي على كل تفاصيل القصة.. أما أنا فاعذراني فقد حان موعد نومي.

أخذته زوجته من ذراعه لتساعده على الوقوف.. فانتبـــه مخلوف إلى أن هذه إشارة بأن الزيارة قد انتهت.

وقف مودعاً ووقفت أمه أيضاً شاكرين حسن الاستقبال وحسن الضيافة.

في هذا الوقت بالذات أمسكت ابنة عمه يده وطلبت منه البقاء فالوقت مازال مبكراً.

أحس بقشعريرة خفيفة تسري في يده وتنتقـــل منـــها إلى كامل جسده لقد كانت يدها دافئة وبضة.. فخفق قلبـــه كمـــا لم يخفق لامرأة قبلها..

سمعها تعيد عليه العبارة.. (مازال الوقت مبكراً يـــا ابـــن عمي)..

نزل عند رغبتها وبقي فأخذته من يده بدلال وقادتـــه إلى غرفة مجاورة تاركاً أمه مع زوجة عمه.

كان مخلوف يسرق النظر بين الفينة والفينة إلى وجه ابنـــة عمه وهي تحدثه.. لاحظ أن جمالها لا يقاوم بدا مرتبكاً فهـــو لأول مرة ينفرد بامرأة في حجرة لوحدهما.

ــ سألته ماذا تشرب؟

ــ عصير ليمون يا سيدتي.

فنهرته بخفة دم محببة.. ناديني بـــ "سها" أو ابنة عمـــي.. فأنت اقرب الناس لي.. ثم سألته لماذا لم تحضر زوجتك معكم؟

ــ لسبب بسيط.. أنني غير متزوج.. وأين زوجك أنت؟

ــ هل يبدو عليّ إنني متزوجة!!..

ــ لا يبدو ذلك وإنما هو مجرد سؤال.

ــ كم عمرك يا ابن عمي؟

ــ خمس وعشرون سنة.. وأنت يا "سها"؟

ــ عشرون سنة إلا بضع شهور.

ــ عجيب!!

ــ وما العجب في ذلك؟

ــ إنك تبدين أصغر من ذلك بكثير.

ــ شكراً للمجاملة.

ــ والله إنها ليست مجاملة ودون أن يدري رفـع يـدها اليمنى إلى فيه وقبلها قائلاً:

ــ اعذريني إذا كان فيما قلت عبارة أو جملة خالية مـن اللياقة.. فهذه أول مرة اجلس فيها إلى امرأة غير أمي.. وأتحـدث معها.

ــ صحيح!.. ابتهجت بذلك وقالت له:

ــ تعال إلى هنا متى شئت وتحدث معي يشرفني لقياك.

ــ لعلك لا تعلمي إنني تاجر بسوق العطرية ولا وقــت لدي إلا يوم السبت.

ــ لا عليك سامر عليك أنا في الأيام القادمة.

ودعها عند الباب واستأذن امرأة عمه في الانصراف..

ــ سألته أمه في الطريق ما رأيك بها؟..

ــ أجاب إنها قصة عجيبة..

ــ قالت لم أسألك عن القصة فعندي تفاصيلها كاملة وإنما سألتك عن ابنة عمك.

ــ إنها عاقلة وجميلة.

وأدركا المترل ففتح الباب وولجا إلى الداخل.. اســتيقظ كعادته مبكراً وتناول إفطاره مع أمه.. وطلب منها أن تحكي لــه قصة عمه..

ــ قالت عندما تعود مساء.. قال بإصرار لن أذهب قبل أن اعرف القصة .. يكفي أنني لم أنم ليلة البارحة.. شغلتني القصة كثيراً.. كم مرة حدثتني نفسي بأن أوقظك لتقصيها عليّ فأستريح.

ــ اجلس واستمع إذن.

★ ★ ★

(31)

مع صياح الديكه، فتح الشيخ حامد عينيـه ثم فركهمـا وقال وهو يتثاءب..

أصبحنا وأصبح الملك لله.. توضأ وقام على عجل قاصداً الجامع الكبير لم يكن بعيداً عنه.. وبالرغم من ذلك كانت صـلاة الصبح كثيراً ما يصليها بعد شروق الشمس خاصة يومي الاثـنين والجمعة لأنه يسهر بالزاوية إلى ساعة متأخرة إلا انه لسوء طالعـه أو لعله لحسنه أن توفى إمام الجامع الكبير الذي يعد أغلب مرتاديه من العوام فانتقلت إليه الإمامة بتحريض من مريديه..

كان كلما استيقظ مبكراً عضّ على شفته السفلي وقـال والله لولا القيمة المادية والمعنوية لهذا المنصب ما فضلت صلاة على نوم الفجر ولكن للضرورة أحكام..

وبحكم منصبه الجديد صار يقدم في كل المناسبات الـتي يحضرها إماما على الجميع..

وفي يوم جمع أولاده السبعة وأخبرهم أنه منذ اليوم قد تغير لقبهم فبدلا من أولاد الشيخ.. صاروا أولاد الشـيخ الإمـام..

ويبدوا أنه صدق ما أوحاه له شيطان كبريائه لذا صار لا يرد على أحد يناديه بالشيخ أو بالإمام منفردة.. إذ لابد مــن أن يقرهمــا بقوله الشيخ الإمام.. وعندما سئل لماذا ليس الإمام الشيخ..

قال المشيخة أخذها قبل الإمامة وتعصباً من مريديه كانوا هم السباقون دائماً إلى مناداته في المجالس المختلفة بالشيخ الإمام.. ويشاع أن بعض خلصائه من المريدين كتب على باب مترل الشيخ وبالخط العريض (مترل الشيخ الإمام).. إلا أن العــارفين بخفايــا الأمور ذكروا أن ابن الشيخ الأصغر بوحي من والده هو من فعل ذلك.

ضحك المارة وهم يقرءون ما كتب على باب الشيخ وما أسرع ما انتشر الخبر فهذه أول مرة يكتب أحد على باب مترلــه مثل هذه الكلمات.. وبدأت التعليقات ولعل أقساها علــى أذن الشيخ الإمام ما صدر عن الحاج مختار حين قال (اللي مــا يعبّــد روحه يتفترش)..

★ ★ ★

(32)

سارت الولاية سيرة رتيبة لا أحداث فيها تلفــت النظــر واستسلم الجميع خاصة بعد القضاء على المظاهرة بعنــف غــير معهود في السنوات الماضية فكانت فرصة ثمينة استثمرها الوالي في زيادة الضغط على مواطني ولايته والاستبداد بهم وأكل أمــوالهم وسلب أراضيهم فدانت له رقابهم إلى أن كان يوم التحم فيه الطلبة والمواطنون في مظاهرة صاخبة لا علم للوالي ولا لمباحثه بها.. جاءه ضابط المباحث وهو يلهث.. قائلاً:

اخرج يا سيدي بسرعة إنهم قادمون نحو الولاية.. أطــل برأسه من النافذة المطلة على الشارع الغربي فرأى سيلاً هادراً من المواطنين لا أول لهم ولا آخر يهتفون بسقوطه وسقوط الشاوش، وسقوط الدراويش الثلاثة.

ـــ فقال أبلغت بهم الجرأة إلى هذا الحد!!

ـــ أجاب الضابط.. وأكثر يا سيدي.. اســتثمر الوقــت وأهرب إنهم قادمون..

نزل بسرعة الريح وركب سيارة أحضرها لــه ضــابط المباحث للتمويه لأن المواطنين إذا رأوه في سيارته رشقوه بالحجارة.

وصل بحمد الله إلى مقر المباحث وصعد إلى مكتب المقدم المسؤول.. وبدأ الاستفسار.. ماذا يعني كل هذا؟.

فاخبروه أن إسرائيل ضربت مصــر وان عبــد الناصــر استقال متحملا المسؤولية أمام شعبه.. فقال الوالي وماذا يعنينا نحن من كل ذلك؟

ــ (تعاركت الفيران على خميرة الجيران)..

وصلت الأنباء بعد ساعات بأن المواطنين كسروا زجــاج نوافذ الولاية وتسلقوا الحائط عبر شجر القرطوس وعبثوا بكل ما في مكتبه وزيادة في التشفي بال أحد الطلبة على كرسي الوالي.

احمر وجهه من الغضب وفقد السيطرة على عقله وقال:

ــ إذا استمرت الحال على هذا الشكل فأنا أســتطيع أن اجزم بأن قيامة هذه الدولة صارت قريبة جداً..

ــ قال له أحد الحاضرين من أبناء عمومتــه.. (تفــاءلوا بالخير تجدوه.)..

ــ نحن لا صالح لنا في القادم ما دام الحاضر في أيدينا..

وبينما هم في هذه الحال سقطت أمام الوالي مباشرة حجرة عبر النافذة المفتوحة أطل على إثرها أحد الحاضرين وصاح هناك فلول من الطلبة تعدو قادمة نحونا وما هذه الحجرة إلا من أول طلائعها..

نزل الوالي مهرولا وهو يشتم.. أخذوه إلى منزل أحد المواطنين ليختفي به حتى تنتهي المظاهرة.. سال عن المرحاض وبدأ في التردد عليه.. لقد أصيب الوالي بإسهال حاد.

★ ★ ★

(33)

قالت "لافيه" لمخلوف:

ــ تعال إلى جانبي.

رفع كرسيه وقربه منها وبدأت الحديث:

ــ كان يوما ماطراً من أيام الشتاء القاسية عصفت فيــه الريح بشدة مبالغ فيها.. لم يجرؤ أحد على الخروج مــن مترلــه بسبب الريح أحضرت جدتك كيساً مملوءاً بالبرتقال ناولت كــل واحد من الحاضرين برتقالة وقالت إنه ينفع في يوم كهذا..

قال جدك هذه نصيحة مفيدة لو كانت البرتقالة مقشرة..

ضحك الجميع.

كانت أسرة جدك مكونة من جــدك وجــدتك وأبــوك وعمك كبير التجار الذي يصغر والدك بسنتين..

فرك جدك يديه وقربهما من المدفأة معلقاً على قسوة برد الشتاء بقوله:

ــ الشتاء هذا العام أشد برداً منذ عشرين سنة أو يزيد.

فردت جدتك وهي تبتسم:

ــ لا أظن أنه أشد برودة من غيره ولكنك صرت تشتكي من البرد كلما تقدم بك العمر.

كان منزل عم والدك مجاوراً لأخيه.. ازداد البرد وبلغــت درجة الحرارة خمسة تحت الصفر والمنازل كلها غير معدة لاستقبال موجات من البرد بهذه الشدة.. أحس جدك بـــالبرد يســـري في جسده لم يمهله أكثر من خمسة أيام إنتقل على إثرها إلى جوار ربه..

كان عم أبويك أكثر جمعا للمال من أخيه الذي يحــب أن يعيش ليومه.. صحيح أنه ليس لأحد دين عليه ولكنه في المقابل لم يترك إلا قليلاً من المال لا يكفي لإعالة أسرة من بعده ولو لأشهر فقط.

بعد أن انفض العزاء.. جاء أخو جدك وقال:

أنا أعلم أن أخي لم يترك وراءه مالا ولهذا سأقترح علــى أسرتكم الصغيرة اقتراحا.

اتجه بالحديث إلى جدتك قائلاً:

ــ تعلمين أن لا ولد لي.. لذا سآخذ ابنك الأصغر ليعيش بيننا واهتمي أنت بتربية الكبير وسأعينك بين الفينة والفينة بقليل من المال..

قبلت جدتك مضطرة وعاش عمك بمترل أفخم وطعـــام أشهى وارتداء أرقى الملابس ولكنه فقد كثيرا من الحنان وعـــاش والدك أياما عجافاً تمضي عليه أحيانا إلا مـــن وجبـــة واحـــدة في اليوم.. والصورة التي رايتها توضح لك الفرق بينهما في المعيشـــة ولكن والدك في المقابل أخذ عن جدتك رقتها وحنالها.

قرر عم والدك السفر خارج البلاد للتجارة وزيادة الربح فأخذ عمك معه كان عمره إذ ذاك عشر سنوات بكت جـــدتك لفقده كثيراً..

واضطر والدك إلى ترك مقاعد الدراسة مبكراً ليعيل أمه.. وهكذا عانى شظف العيش منذ صغره وعندما توفيـــت جـــدتك وتركته وحيداً عانى قسوة الحياة.. واعتمد على نفسه.. كان عمره إذ ذاك ست عشرة عاماً.

اضطره السعي وراء رزقه للتجوال والتنقل داخل طرابلس وخارجها والى تحمل الإهانات من الناس.. كان كما يقول يأكـــل لقمته مغموسة بالإهانة.. شعر بالدونية والوحدة وعذبته الوحـــدة أكثر من غيرها.. بكى كثيراً ولا صدر يضمه بحنان..

عندما عاد في آخر أيامه إلى طرابلس قادماً من سبها كان أخوه قد عاد من إيطاليا بزوجة من طبقة أرستقراطية وبنتاً لا تعرف غير أسرتها الصغيرة.

حكى عمك أنه عندما سافر مع عمه إلى إيطاليا حيث كون متجرا للمواد الغذائية بصقلية وبدأت ثروته تزداد يوماً فيوم حتى صار من كبار تجار المواد الغذائية بها ولكنه أصيب بجلطة دماغيه لم تمهله كثيراً فمات مخلفاً وراءه ثروة كبيرة.

بكت زوجته عليه كثيراً.. كانت تحبه وتعده مفخرة لها ولأسرتها.. ظل عمك وفياً لزوج عمه عطوفاً عليها ولكن صحتها بدأت تسوء.. عرضها على كثير من المشافي في إيطاليا ولكن تقدم السن ليس له علاج..

توفيت بعد زوجها بعام واحد.. فورث ثروة طائلة.. ثم قرر الرجوع إلى بلده.. أجّر المتاجر والعقارات وعاد إلى طرابلس مكونا بها مجموعة من متاجر المواد الغذائية..

بعث لوالدك رسولاً منه طالباً أن يلتقي به.. فرفض والدك قائلاً: كان عليه أن يأتي إليه لأنه الأكبر سناً.. وظلت العلاقة

بينهما فاترة لا كراهية ولا عداوة حـــتى اختـــار الله والـــدك إلى جواره.

كان مخلوف يفكر خلال الطريق بكل ما أخبرته به أمـــه حتى بلغ دكان العطرية..

سأله جاره بالمتجر..

ــ لماذا تأخرت في الحضور؟. عسى أن تكون بخير!

قال مخلوف:

ــ أنا بخير.. ولكن الظروف أخرتني قليلاً..

ــ فرد جاره باندهاش مبالغ فيه قليلاً:

ــ إنه منتصف النهار.. وأضاف.. دون اكتـــراث لقـــد جاءت سيدة تسال عنك منذ ساعة وملامحها لا تدل على أنها من زبائنك وعندما لم تجدك تركت لك هذه الورقة.. وذهبت.

ناوله ورقة مطوية بعناية.. تفحصها قبل أن يفتحها.. أدرك أن لا أحد يهتم بحضوره أو غيابه غير أمه.. فمن هذه التي اهتمت به إلى أن تركت له هذه الورقة.. وفجأة تذكر ابنة عمـــه.. فـــتح الرسالة وقرأ..

ابن عمي العزيز

صباح الخير

أرجو أن أراك هذا المساء بمترلنا.

ابنة عمك.

سها

فرح بسؤالها عنه وطلب لنفسه ولجاره شاياً.. لاحظ جاره الفرحة في عينيه.. فسأله عن فحوى الرسالة.. فأجابه ستعرف أمرها في الوقت المناسب.

★ ★ ★

(34)

عمت المظاهرات مدن وقرى ليبيا.. وحدثت فيها خروقات عدة نتيجة لمحاولات قمع المظاهرات بالقوة لتحويلها عن هدفها.. وشوهدت سيارات القوة المتحركة تجوب شوارع المدن الرئيسية.. فزادت من تأجج المواطنين لأنهم باتوا يكرهون أجهزة القمع في البلاد خاصة القوى المتحركة التي قهرت إرادة الشعب لسنوات طويلة ولخوفها على مصالح بعض الجاليات الموجودة في المدن الليبية... قررت حمايتها بقوة السلاح مما ألهب غضب المواطنين على تلك الجاليات وعدها مصدراً من مصادر التدخل الأجنبي في الشؤون الداخلية.

★ ★ ★

(35)

استقبلت سها ابن عمها مخلوف بصالون الضيوف وبعد عبارات المجاملة واللياقة.. أخبرته أن عمه يريد التحدث معه..

جاء عمه وجلس إلى جانبه وطلب من ابنته أن تحضر لهم شيئاً من عصير البرتقال.. تابع مخلوف ابنة عمه وهي تغادر الصالة.. أعجبته مؤخرتها..

ربت عمه على يده وقال:

ــ يا ابن أخي أرأيت ما حل بتجارتنا من بعض الغوغائيين الذين كسروا متاجرنا وأضرموا النار فيها..

ــ قال مخلوف.. لم تحرق متاجرنا بسوق العطرية..

ــ قال كبير التجار: ولكنهم أحرقوا كثيراً من متاجر أهلنا في جميع مدن المملكة!.

قال مخلوف:

ــ هذه بلدنا ومسقط رأسنا ولسنا الأقلية الوحيدة بها.. فلماذا نصنف على أننا أعداء دائماً؟

أجاب كبير التجار:

ــ إننا اعتقلنا كما اعتقل غيرنا من الليبيين.. وإذا كـــان معتقل "العقيلة" جرت فيه أعمال قمـــع ســـجلها الشـــعراء في أشعارهم.. فمعتقل (جالو) كان من نصيبنا ولاقينا فيه من الهـــوان والقتل بالمئات على يد الاستعمار الإيطالي وانه ليعز علينـــا تـــرك بلادنا رغم إغراءات الصهاينة لنا بتقديم كافة المساعدات بالهجرة إلى أرض فلسطين فضلاً على ما يقوم به النظام الملكي من ضغوط لنضطر للسفر، دمعت عيناه وشعر بمرارة في حلقه وأضاف:

ــ والله إنها بلدنا ويعز علينا فراقها.

ــ قال مخلوف: وماذا تنوي أن تفعل يا عمي؟.

ــ يا ابن أخي إننا أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة يؤثر فينا غلق متاجرنا ليوم واحد فما بالك لأسابيع وربما لشـــهور أو حتى سنوات..

لذا فإنني قمت ببيع أغلب ممتلكاتي بطرابلس وحولتها إلى صقلية عن طريق (بنك دي روما).. وسوف أغادر طرابلس قريباً ولكن الذي يحزنني أنني سوف أتركك كما تركت أباك في سفري الأول.. لذا فإنني أعرض عليك أن تأتى معي وتبيع متجرك بسوق العطرية وأزوجك من سها وتصبح مديراً لأعمالي بإيطاليا.

صدم بالخبر.. ثم سال نفسه بصوت يشبه الهمس.. هـــل توافق سها على الزواج مني..

سمع عمه السؤال فأجاب:

ــ لقد فاتحتها بالموضوع ولم تبد ممانعة..

وقف مخلوف مودعاً عمه وهو يقول:

ــ سوف استشير أمي في الموضوع..

ــ أحسنت يا ابن أخي وأرجو أن أراك قريباً فان الأمر لا يحتمل التأخير.

ذهب من فوره إلى أمه وأبلغها بما أخبره عمه.. رحبـــت بزواجه من ابنة عمه.. ورفضت السفر متحججة بأن هذه الـــبلاد هي مسقط رأسها ورأس أبيها وأجدادها وتحب أن تقبر فيها..

حاول إقناعها كثيراً ولم يفلح.

عاد إلى مترل عمه وأخبره بما دار بينه وبين أمه.. وأنه قرر الزواج بابنة عمه أولا ثم السفر مع ترك مبلغ من المال لامه يكفيها مؤونة السنين القادمة..

وفي مساء خريفي ودع مخلوف أمه وترك لها مبلغاً من المال ومتجره بسوق العطرية بعد أن قصره على أصناف قليلة ولكنـــها مطلوبة.

ركب الطائرة مع زوجته ولحق بعمه الذي سبقهم وزوجته ليرتبا السكن والحياة الجديدة.

★ ★ ★

(36)

رجعت أمه مكسورة الخاطر مهيضة الجناح مـــن المطـــار مباشرة إلى مترلها.. حاولت أن تركز في مجريات ما حـــدث لهـــا ولابنها فلم تستطع.. حاولت أن تلقي بالمسؤولية في سفر ابنـــها وتركه موطنه الذي لا يعرف غيره بسبب مظاهرات الشغب فلـــم تفلح لأنها تذكرت أن المظاهرة لم تهشم دكان العطرية لذا فالسبب في سفر ولدها هو عمه.. يا ليته ما رآه.. وظلت هـــذه الأفكـــار وغيرها تتجاذبها والدموع تسيل من عينيها حتى أدركها ســـلطان النوم فنامت مكانها.

قتلتها الوحدة والفراغ.. ولم تجد الرغبة الصادقة في فـــتح متجر العطرية.. قالت إنه يزيد من مواجعها فكلما فتحته تذكرت مخلوف وأباه فتعود لقفله بسرعة ومغادرته إلى المترل.

بعد شهور شوهدت جنازة يتقدمها رجل مســـن يبكـــي أمامها ورجلان استأجرهما لحملها لأنه لم يبق مـــن أهلـــها أحـــد بالحارة.. قال الرجل المسن إن الطبيب الشرعي أخبره إنها توفيت منذ يومين.

أبرق العجوز لابنها مخلوف لإعلامه بوفاة أمه.. حاول أن يأتي ولكن السفارة الليبية بروما أخبرته أن عليه أن ينتظـر أيامـا ليحصل على التأشيرة.. فاقلع عن السفر متذمراً والغصة في حلقه، كيف يمنع من السفر إلى وطنه!

إن حكومة طرابلس تضيّق علـيهم ليكرهـوا وطنـهم وينظموا إلى الصهاينة بأوروبا ويرحلوا إلى فلسطين.

قرر فيما بينه وبين نفسه أن لن يسافر إلى فلسطين وسيبقى بإيطاليا.. لهذا أقام حفل تأبين لأمه بمنزل عمه بصقلية.

★ ★ ★

صــدر للمؤلـف

1 – أنصاف العملاء (ديوان شعر)، 1976.

2 – رثاء الأنظمة العربية (ديوان شعر)، بيروت: دار العودة، 1976.

3 – الزيات ناقداً (دراسة نقدية)، ط1، سبها: جامعة سبها، بيروت: دار الجيل، 1994.

4 – شعر ابن الرومي (دراسة نقدية باللغة الانجليزية)، لندن: دار الحكمة، 1994.

5 – الزيات ناقداً (دراسة نقدية) / ط2، بيروت: دار الجيل، 1996.

6 – أضواء نقدية على رباعية الكوني، بيروت: دار البيان، 2001.

7 – الأرض الهلامية (ديوان شعر) / طرابلس: دار النخلة للنشر، 2005.

8 – دبابيس في قفا الأديم (دراسات نقدية)، طرابلس: دار النخلة للنشر، 2006.